نصف حياة

حنان شاهين



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : **نصف حياة**

المــــــؤلف : حنان شاهين

رقــم الإيداع :



الطبعة الأولى 2013

إهداء ...

لو كان لى واد من ذهب

لاكتفيت منه بقلبك

إلى أختى الحبيبة شوق ..

ما لا يليق بمحبتها ..

حنان

شكر واجب

إلى شاهين ..

علمتنى كيف أخط حروفى الأولى

و كنت لى أبا حين فقدت أبى

وبعثت فى صحراء أيامى زهورا يانعة

حولتها إلى واحة وارفة الظلال

إليك يا أخى الحبيب

بعض ما غرسته يداك بالأمس

فى ربوع طفولتى



ماذا يحدث لو أنى أخبرت زوجى بحقيقة مشاعرى نحوه ؟

قد تنقلب حياتى رأسا على عقب ..

ماذا تعنى قـد .. ؟

أثمة احتمال أن يتفهم ذلك ؟

يجب ألا أفكر فى هذا الأمر وأتذكر فقط أنى أم ..

ترنو بأسى إلى الحائط المقابل حيث علقت صورة فوتوغرافية ذات إطار ذهبى تضم فتاتين صغيرتين كادت ابتسامتهما أن تعكس على وجهها ابتسامة هزيلة مالبثت أن خبت بمجرد أن انتقلت ببصرها إلى صورة أخرى مجاورة تضمها وزوجها ،

يتجهم وجهها :
لكنى ما عدت أطيق أن يلمسنى ..

ما عدت أطيق نفسى عندما أكون مسجاة بين يديه بينما يعبث بجسدى كيف يشاء ، ماعدت أطيق أن يتهمنى بالبرود وهو لايعلم أن بداخلى تلك الرغبة المتأججة والتى ما يكاد يقترب منى حتى تنطفئ .

تنظر لوجهها فى المرآة ، تتأمله ، تحرر شعرها ، تشد قميصها حول خصرها من جانبيه وتسحبه إلى أعلى كاشفة عن بعض ساقيها :

ـ ألستُ جميلة بحق ..؟

– أنتِ بالفعل هكذا ..

ـ حامد لا يقول لى هذا ، أعرف أنه لا يحبنى .

ـ لا يهم أن يحبك .

ـ ما الذى يهم إذن ؟

ـ أن تحبى أنت نفسك .

– وهل أنا لا أحب نفسى ؟

– نعم أنت لا تحبيين نفسك لأنك لم تكونى نفسك .

أفلتت قميصها :

– أنا لست نفسى .. ! فمن أكون ؟

– أنت أى شئ إلا حياة .

ـ أنا حياة بجسدها وروحها ..

ـــ أنت جسد منتهك ، روح مشوهة مثل إصبع قدمك الذى شوهه صـمتك حين كنت تنتعلين حذاءً ضـيقا ظل يؤلمك ولم تحاولى أن تخلعيه ، حتى عندما تزوجتِ ، تزوجتِ رجلا ظل يفرض عليك كل شـيء ويقرر لك كل شـئ ، ماذا ترتدين ، منْ تصـادقين ، حتى عندما يمارس معك الحب يفرض عليك ما يرغب هو فيه وأنت أبدا لا تعترضين .

ـ وماذا بوسعى أن أفعل ؟

ـ بوسعك أن ترفضى .

ـ رفضت كثيرا .

ـ كان يجب أن تواصلى .

– إلى متى ...؟ إلى الموت ؟!

– وهل أنت هكذا تحيين ؟ أنت تموتين فى كل يوم تُلْغَى فيه إرادتك ، تموتين مع كل حصان كنت ترسمينه وتمزقينه .

– كان يجب أن أمزقه لأنى لاأستطيع أن أبث الروح فيه .

ـ فاقد الشئ لايعطيه .

– ماذا تقصدين ؟

– أقصد أن تبثى الروح فيك أولا ، هنا فقط يمكنك أن تبثى الروح فى حصانك وفى قلبك وفى حياتك كلها .

- أنا لست إلها لأبث الروح فى أى شيء .

- لايحتاج الإنسـان أن يكون إلها لكى يهب الحياة للأشـياء ، الحياة تولد بالحب وأنت لم تعرفى الحب .

- حب .. ! الحب فى حياتى مثل العفريت الذى طالما سـمعت عنه ولكنى أبدا لم أره .

- لو آمنتِ بوجوده وحاولت أن تجديه سوف تجدينه لكنك لم تؤمنى ولم تحاولى ورضيت ببؤسك وحرمانك .

- لم أرض أبدا .

- ولم ترفضى .

أ شاحت بوجهها بعيدا عن المرآة ، حاولت أن تتذكر على مدار حياتها موقفا واحدا اتخذته ونفذته بإرادتها فلم تجد .

تسأل نفسها :

ألهذا الحد أنا لست موجودة ..؟

ألهذا الحد أنا غير مرئية ..؟

تتذكر ذلك الحلم الذى طالما عاودها حيث ترى نفسها فى مرآة كبيرة وإذا بوجهها قد مُسح تماما ومُحيت معالمه فلا فم ولا أنف ولاعينان ، تتحسس وجهها فى فزع :

وجهى .. وجهى .. !

لم تعرف حياة الحب ، لم تعرف سوى حامد ، تتذكر تفاصيل ليلتها الأولى معه ..

كانت خائفة ، خجلة ، توسلت إليه أن يمهلها بعض الوقت لكنه أجابها :

ـ لا وقت ، يجب أن يتم الأمر الليلة .

و ما هى سوى لحظات حتى تجرد من و قاره ا لذى ظل يلاز مه طيلة مدة خطبتهما فلم يحاول أن يلمس يديها أو أن يهمس لها بكلمة حب صار شبه عار ، بعد أن انتهى مدّ يده وجذب منشفة قطنية بيضاء و ضعت بجوار السرير ، ناولها إياها ثم انطرح بجوارها وهو يتصبب عرقا قائلا : « مبروك ياعروسة »

ثم ما فتئ يعاود الكرَّة حتى كاد الليل أن ينتهى و ما إن غفت حتى سمعت الزغاريد تقترب شيئا فشيئا .

حين دخلت أمها ارتمت فى أحضانها وأخذت تبكى ، شهقت الأم وضربت بيدها على صدرها :

ـ ألم يحدث .. ؟

ـ لقد حدث ولكنى أتألم ..

ضـحكت الأم : هكذا تكون أول ليلة ثم خرجت من غرفة نوم العروسين تزغرد وتزف البشرى ، تنطلق زغاريد النسوة اللائى رافقنها لمجرد رؤيتها وهى تطوح عاليا بالمنشفة ذات البقع الحمراء بيد فيما ترفع راحة اليد الأخرى أعلى فمها وهى تطلق زغرودة قوية كإشهار رسمى متعارف عليه يؤكد شرف وعفة ابنتها .

تتذكر أيضا أنها عندما كانت طفلة صغيرة وفى ذات ضحى دخلت أمها ومعها امرأة سوداء بدينة مازالت تتذكر اسمها [زين].. نادتها أمها حيث كانت تلهو فى الشارع مع أصحابها ، تأتى وتقف بين يديها ، تمتد يدا أمها وتُنْزل عنها بنطالها قائلة :

ـ لاتخافى ...

لكنها خافت ، حاولت الإفلات بجسدها النحيل ولكن دون فائدة، ظلت تصرخ صراخا متتابعا اجتمع عليه الأطفال أمام باب المنزل الذى كان قد أُغلق ، تنهرها أمها تارة والخالة زين تارة أُخرى تأمرانها بالكفّ عن الصراخ والتزام الصمت .

صمتت لأنها كانت قد أعياها الصراخ ...

***

عاد الإصبع المعوج فى قدم حياة اليسرى يؤلمها بشدة مما اضطرها للذهاب للطبيب ، سألته إن كان هناك حل يعيد إصبعها إلى وضعه الطبيعى ويجنبها الشعور بالألم فأخبرها أن عليها أن تتقبل شكل قدمها على ماهو عليه ثم أقر لها بعض المسكنات .

اعتادت منذ ذلك الحين على ارتداء حذاء مفتوح من الأمام والخلف بحيث يسمح لقدميها أن يتحركا بحرية وبرغم ذلك كان الألم يعاودها حتى أنها كانت تمضى معظم الوقت بالمنزل حافية القدمين

فى إحدى المرات عندما زارتها أمها سألتها عن سبب ذلك فلم تجب وإنما بادرتها :

ـ لماذا يا أمى كنتِ تجعليننى أنتعل أحذية ضيقة وأنا صغيرة ؟

ــــ لكى تُبقى قدميك صغيرين ، فالرجل يعجبه قدما المرأة عندما يكونان صغيرين .

ـ ولكنك بهذا تسببتِ فى إعوجاج إصبعى وشعورى الدائم بالألم .

– أنا أيضا مثلك ، إنظرى إلى قدمى .

– ولماذا لم تتركيهما على طبيعتهما يا أمى ؟

– دعك من هذا وأخبرينى ... لماذا تغضبين زوجك ..؟

– اشتكى لك ؟

ـ اشتكى لأبيك ، قال إنك لا تعطينه حقه الشرعى

– ماذا أفعل إن كنت لا أرغب ؟

– لابد أن تطيعى زوجك فيما يريد واعلمى أنك لن تدخلى الجنة إلا برضاه عنك و...

بينما كانت الأم مسترسلة فى توجيه نصائحها المعتادة كانت حياة شاردة تحدق فى إصبعها المعوج .

على غير عادته عاد حامد متأخرا إلى البيت حيث كانت حياة جالسة تشاهد التلفاز، أطفأه ثم جلس يسألها :

ـ هل نامت البنتان ؟

– نعم ، ما الذى أخرك هكذا ؟

– كنت فى مجلس عرفى فى منزل الحاج موافى .

– بخصوص سعاد أيضا ؟

– لاتذكرى اسمها أمامى ولا أريدك أن تعرفيها بعد الآن .

– ماذا حدث ؟

– إنها امرأة قليلة الحياء ..

– ماذا فعلت ؟

– عندما ســألها أحدنا عن ســبب تركها لبيت زوجها ورغبتها فى الطلاق قالت بكل وقاحة « أنه لا يمتعها فى الفراش »

– أقالت ذلك حقا ..؟

ـ بدون خجل ولا حياء .

ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟

– صمت الجميع فيماعدا أباها الذى سحبها خارج الغرفة ثم ما لبث أن تبعه أخوها وأوسعاها ضربا .

– مسكينة ياسعاد .

لم يعجبه تعقيبها على ماسمعته منه فنهرها :

ـــ المسكين هو زوجها الذى انسحب من فوره تاركا الجلسة وقد اكفهر وجهه خزيا .

كان ما حدث من ســعاد فى مجلس الرجال حديث المجالس التى تجتمع عليها النســوة فى قرية شــأنها كشــأن ســائر القرى التى تتعطش مصــاطبها لمثل تلك الأحاديث أما حياة فقد كانت ترى فى ســعاد نموذجا للمرأة الجريئة والواثقة من نفســها فهى قبل أن تكون زميلتها فى العمل كانت صديقتها منذ سنوات الدرا سة ، فتاة فائقة الجمال ، ذكية ، خفيفة الظل ، محبوبة من كل زميلاتها .

تقدم شــاب من أهل القرية لخطبتها وما أن أنهت دراســتها الجامعية حتى تم الزواج ، عاشت بعد ذلك بضع سنوات هانئة مع هذا الزوج الذى كانت تحبه ويحبها ولكن هذا الحب لم يصـــمد أمام رغبته فى الإنجاب فضلا عن إلحاح والديه عليه بالزواج من أخرى .

عندما فاتحها زوجها بالأمر ثارت وغضــبت وبرغم محاولات كثيرة تمت من قِبل زوجها وبعض أفراد أســرتها لتقبل فكرة وجود زوجة ثانية له من أجل إنجاب الأولاد إلا أنها أصرت على طلب الطلاق .

ظلت تعانى من حالة نفسية سيئة بعد طلاقها ، ظنت أن وجود رجل آخر فى حياتها قد يخفف عنها بعض حزنها خصــوصــا بعدما علمت بخبر زواج مطلقها وحمل زوجته الجديدة .

وافقت بعد تردد على أحد الذين تقدموا للزواج بها ، رجل ســبق له أن تزوج وطُلقت منه زوجته لعدم قدرته على الإنجاب حسبما قيل لها .



آوت حياة إلى فراشــها بعد يوم أرهقت فيه جســدها فى إعادة ترتيب الأثاث وكأنها بهذا وبدون أن تشعر تريد أن تؤكد لنفسها أنها قادرة على إحداث تغيير حتى ولو كان هذا التغيير لا يتعدى تحريك قطعة أثاث من مكانها .

لحق بها حامد بعد أن انتهى من دفتر التحضــير الخاص به وعندما وجدها نائمة ناداها :

- حياة .. استيقظى ..

- أنا متعبة وأريد أن أنام .

تتثاءب وتعاود سحب الغطاء عليها .

يدفعه عنها ويقول :

- لست أريدك فيما تتهربين منه ، إنه موضوع هام .

- أى موضوع ؟

- أريدك أن تذهبى للخالة زين .

حياة وقد اعتدلت جالسة :

ـ الخالة زين ! لم ؟

ـ لختان حورية .

ـ حورية .. !

- نعم ، كان يجب علينا هذا من عام أو أكثر ، أنا نســيت وأنت لم تذكرينى .

- أذكرك ..؟!

- نعم تذكريننى ، مابك .. ؟ أما زلت نائمة ؟

استجمعت حياة شجاعتها حين تذكرت ما تعرضت له من قبل والذى بالطبع لا تريد أن تتعرض له صغيرتها ثم قالت :

- أنا متيقظة ولكنى لاأوافقك .

- لاتوافقيننى على ماذا ..؟

- على ختان حورية .

- وهل أستاذن منك فى شرع الله ..؟

- من قال إنه شرع الله ..؟

- إنه سُنْة عن النبى ﷺ وطهارة ..

- لاهو سُنْة ولا هو طهارة .. هذه عادة من عادات الجاهلية .

- أجننتِ .. ! استغفرى الله .

- أتريد أن تختنها ليجئ يوم تتزوج فيه وينعتها زوجها بالبرود مثلما تفعل أنت معى ، دعها على الفطرة التى خلقها الله عليها .

- أأدعها الآن ليفلت عيارها غدا وتأتى لنا بالعار...؟

– العفة شيء نابع من داخلنا وليس من أج سادنا وإلا كان الأحرى بك أن تقتلع عينيها وتصم أذنيها حتى لاترى ولا تسمع ما يثير شهوتها .

– الكلام معك لن يجدى نفعا ، سأحضرها أنا بنفسى .

خشيت حياة أن ينفذ ما يقول فاستمهلته :

– أنا فقط أتناقش معك وفى النهاية سأفعل ما تريد .

انتهى الحوار وكانت قد أضمرت شيئا فى نفسها وعقدت عزمها على مجاراته فيما يريد وإيهامه أنها ستفعل ما أمرها به وهى قد انتوت عكس ذلك فجلست مع ابنتها وأفهمتها بما يجب عليها عمله وأن تنام فى الفراش لفترة وتتظاهر وكأنما الأمر سار كما يريد وعندما عاد من العمل أفهمته أن ما أراده قد تم .

أعجبت حياة بما فعلت فهذه أول مرة تريد فيها شيئا وتنفذه ، فراحت تزيح الستار عن المرآة وتنظر لنفسها فى عجب وتقول :

– ها أنا أردت ونفذت ماكنت أريد .

– أنتِ لم تفعلى شيئا سوى أن كذبتِ وجعلت ابنتك الصغيرة تكذب أيضا .

– كان مصرا على موقفه ولن يتراجع .

– كنت على صواب وهو على خطأ .

- أنا على صواب مقترن بضعف وهو على خطأ مقترن بقوة .

- كنت قوية عندما أعلنت عن موقفك وكان يجب أن تظلى قوية .

- كنت خائفة أن أدخل فى مواجهة أعلم أنى الخاسرة فيها .

- قاموس حياتك يفتقر إلى معانى كثيرة .

- مثل ماذا ؟

مثل الإصـــرار، المواجهة ، ... مثل كلمة « لا » التى نســيتها مثلما نسيت الرسم .

- أنا لم أنس الرسم .

- وما أدراك أنك لم تنسه؟ ربما تحجرت يدك مثلما تحجرت إرادتك.

- لا .. لا يمكن أن تتحجر يدى ، يمكننى أن أرسمك الآن ..

- ترسميننى أنا أم أنت ؟

- أنا أنت لا فرق بيننا ..

- ليس هذا صحيحا ، هناك فرق كبير ..

- أى فرق قد يكون بينى وبينك ؟

- أنا لست حقيقة ، سأختفى بمجرد أن تولى ظهرك لى .

***



عمدت حياة إلى تغطية وجه المرآة بقطعة قماش قديمة كانت فيما يبدو بقايا ستارقديم ، تعجب حامد من تصرفها هذا وظن أنها ربما فعلت ذلك لأنه كان يحب استراق النظر فيها عندما يمارس العلاقة الخاصة معها ولهذا كان يتعمد وضعها فى مكان تكون فيه مقابلة للسرير ..

لم يعلق على تصرفها هذا ولم يهتم لكنه ثار عندما وجد مرآة الحوض الخاصة بالحمام مكسورة أيضا فناداها غاضبا :

ـ لقد كُسرت المرآة ثانية ، كيف سأحلق ذقنى الآن ؟

اعتذرت له بأنها كُسرت منها بدون قصد أثناء تنظيفها ثم ذهبت وأحضرت له مرآة صغيرة مستديرة بقاعدة بلاستيكية يمكن أن يستعملها أثناء الحلاقة ، تناولها على مضض وهو يتمتم غاضبا ، مندهشا من نزعتها إلى تحطيم المرايا .

بعد أن انتهى من حلاقة ذقنه وإرتداء ملابسه متأهبا للخروج فاجأها قائلا :

ـ أريدك أن تتقدمى بطلب إجازة من العمل .

نظرت إليه فى دهشة :

ـ إجازة !

ـ ما العجب فى هذا ؟

ـ هذا قرار مفاجئ ، لم يتبق سوى أيام ويبدأ العام الدراسي الجديد .

ـ هذا لا يهم .

ـ وعملى ؟

ـ عملك هو تربية أولادك ورعاية بيتك .

ـ وهل قصرت فى شيء ؟

– حتى ولو لم تقصرى من حقى أن أجدك بالبيت كلما خرجت منه أو عدت إليه .

– لكن يا حامد ..

قاطعها :

ـ لكن ماذا ؟

– أنت وعدتنى من قبل أنك لن تمنعنى من ممارسة عملى .

– وعدتك حين لم يكن هناك حورية وحسناء .

– دعنى أواصل عملى وأعدك أنى لن أقصر فى واجباتى تجاههما أو تجاهك .

ـــــ لا أريد نقاشــا فى هذا الموضــوع وإلا ســتضــطرينني أن أجعلكِ تقدمين استقالتكِ نهائيا .

التزمت الصــمت خشــية أن يزيد كلامها الأمر ســوءا وينفذ تهديده ويرغمها على تقديم استقالتها فأظهرت الرضوخ وأضمرت الضيق آملة أن يعدل عن رأيه فيما بعد لو حاولت معه باللين والاســتعطاف لكن هذا ما لم يحدث حتى كان اليوم الأول من العام الدراســى فلم تجد أمامها بد من الانصياع لرغبته بعد فشل كل محاولاتها فى إقناعه بالعدول عن موقفه فاســتأذنته فى الذهاب الى المدرســة لاتخاذ الإجراءات المطلوبة بهذا الشــأن وهناك قابلت بعض أصــدقائها القدامى وزملائها فى العمل ومن بينهم صديقتها سعاد التى ما إن رأتها فى فناء المدرسة حتى توجهت نحوها بابتسامة كبيرة .

تبادلتا الســلام والعناق وحوارًا قصــيرًا أخبرتها فيه حياة أنها لم تأت لاستلام العمل وإنما للحصول على إجازة مفتوحة .

أبدت ســعاد أســفها لما ســمعته من صــديقتها فيما كان الجرس يدق معلنا عن بداية الحصة فاستأذنتها فى الصعود إلى الطابق الثالث بعد أن طلبت منها الانتظار لبعض الوقت حتى يمكنهما الجلوس وتبادل الحديث معا .

ذهبت حياة إلى مكتب المدير لتحصل على توقيعه لها بطلب الإجازة ريثما توافيها سعاد بعد انتهائها من أداء حصتها .

كانت تعلم مسبقا أن هناك مديرا جديدا للمدرسة تسلم عمله مع بداية العام الجديد ..

طرقت باب المكتب مستأذنة فى الدخول فإذا برجل يبدو فى العقد الخامس من عمره ، حليق الوجه ، حسن الهيئة ، بشوش ، يفوح منه رائحة عطر أخاذ ، صافحها مرحبا :

ـــ أهلا أستاذة (نظر فى الورقة الذى ناولته إياها بمجرد دخولها) .. حياة .

- أهلا أستاذ (نظرت فى اللوحة الخشبية الموضوعة أمامه على المكتب) .. أحمد .

كان يتحدث بصوت هادئ وعذب وهو يحاول إقناعها بإستلام العمل موضحا أنه لا يُلزم المدرسين بالحضور فى غير مواعيد حصصهم تخفيفا عليهم ..

حياة تنصت له ، تنظر إليه حينا وإلى آنية زهر يانع عن يمينه حينا آخر ..

انتهى من حديثه مؤكدا لها أن القرار قرارها فى النهاية ..

كانت لكلماته ـ لاسيما الأخيرة ـ وقعا فى نفسها وهمت أن تخبره بأنها ستستلم العمل لكنها سرعان ما تراجعت حين تذكرت آسفة أن القرار لم يكن أبدا قرارها فأخبرته بأنها بالفعل مضطرة إلى تقديم طلب الإجازة .

همً بأن يوقع لها لكنه أمال القلم جانبا وقد استشعر فى نبرتها شيء من التردد ، نظر إليها قائلا :

ـــ أرجو أن تعيدى النظر فى طلب الإجازة ، فكرى ولن تخسرى شيئا وإذا ما صممت فسوف أوقع لكِ .

وافقت على اقتراحه وتناولت منه الورقة بدون توقيع.

صعدت السلم متوجهة إلى الطابق الثالث حيث توجد سعاد ، كان قلبها يدق ليس من صعود السلم ، سمعت زقزقة عصافير كانت موجودة طوال الوقت على أغصان الأشجار المحيطة بالمدرسة لكنها لم تكن قد سمعتها من قبل ، انتظرت فى الردهة بضع دقائق ريثما يدق الجرس معلنا نهاية الحصة ، لاحظت وجود أحواض الزهر على جانبى فناء المدرسة ، تحاول أن تتذكر هل كانت تلك الأحواض موجودة من قبل أم أنها زرعت فيما بعد .. تقول فى نفسها : ربما كانت موجودة قبل ذلك ولكن لم أتنبه لها .

دق الجرس وحين فُتح باب الفصـــل رأت ســعاد وكأنما تملأ كفيها بعدة قبلات وتطوح بها فى الهواء لتنثرها على تلاميذها فتتلقى على إثرها قبلات كثيرة من أكف صغيرة تناثرت فى الهواء متجهة نحوها .

جلســت حياة وســعاد فى غرفة المدرســات تتبادلان الحديث الذى بالطبع تطرق إلى ذكر ماحدث فى مجلس الرجال فسألتها :

- كيف أتتك الجرأة لذكر ماذكرته فى جمع من الرجال ؟

- ســألونى عن الســبب فذكرته بكل صــراحة ، أحرام علىَّ أنى قلت الحقيقة ؟

- ليس حراما ولكنه عيبا .

- وما الفرق ..؟

- الحرام هو مانهانا الله عنه والعيب هوماينكره المجتمع علينا

- وإذا حدث تعارض بين العيب والحرام ، أيهما أحق أن أخشاه ؟

- دعكِ من هذا وأخبرينى كيف هى حياتك معه الآن ؟

- حياتى ...

تصمت سعاد برهة ثم تقول وقد شاب صوتها نبرة حزن :

- حياتى لاحياة ولاموت ولكن العمل يهون علىَّ الكثير ..

- أتعرفين ياسعاد أننى كنت أتمنى أن تكون لى جرأتك وأسفت عندما علمت أنك عدت إلى زوجك مرغمة .

وهنا تنهدت سعاد وراحت تتذكر ذلك المجلس عندما كان مجتمعا فى بيت أبيها ضاما مجموعة من الرجال يسألونها عن سبب تركها لبيت زوجها ورغبتها فى الطلاق وكيف شعرت بالمهانة لكونها مضطرة – برغم خجلها – أن تعرى عن مشاعرها الخاصة أمام هذا الجمع من الرجال .

كانت تعرف يقينا أن أحدا منهم لن يتفهم مشاعرها كأنثى ، ولن يقدر صراحتها التى كانوا قد أثنوا عليها من قبل حين لم تُكذب زوجها فيما قال ولم تنكر كرمه وحسن معاملته ولكنها ما إن ذكرت السبب الحقيقى الذى لأجله طلبت الطلاق حتى تجهم البعض واستنكر البعض الآخر ما قالته .

ربتت حياة على كتف صديقتها عندما طال شرودها :

– سعاد ..

– هه ؟

– مابك ؟

– لا شيء تذكرت فقط ماحدث .

صمتت قليلا ثم نظرت إلى حياة فى أسى :

ـــ أتعرفين كيف يشعر الإنسان عندما تهان آدميته وتقهر إرادته وهو عاجز عن فعل شيء ؟

ــ أعرف .. ولكنى أعرف أيضا أنك أقوى وأكثر جرأة ، لطالما كنت كذلك ، أتذكرين الأستاذ محسن مدرس التربية الرياضية .. ؟

تضحك حياة وتنظر إلى سعاد التى ما إن سمعت منها الاسم حتى شاركتها الضحك :

ـ أما زلت تتذكرين ؟

ـــ لقد أدهشتنى جرأتك وأنا أراك توجهين له صفعة قوية على وجهه وأنت تصيحين فى وجهه بأعلى صوتك قائلة « يا قليل الأدب » .

عندها وقف الأستاذ مرتبكا و مذهولا وأنت تحدقين فيه بقوة وتتوعدينه بقطع يده لو حاول مسَّ صدركِ ثانية ..

ــ فى المرة الأولى قلت فى نفسى ربما أنه لا يقصد لكنه تمادى وفعلها ثانية فلم أتمالك نفسى من توجيه تلك الصفعة له .

ـــ أتذكرين .. ؟ بعدها عبرت لك عن إعجابى بجرأتك وكانت تلك بداية صداقتنا .

ـــ لم تكن جرأة بقدر ما كان رد فعل تلقائى ، أى فتاة فى مكانى كانت ستفعل نفس ما فعلت .

ـــ ما كنت أظننى قادرة على أن أفعل نفس ما فعلتِ ، أظننى كنت سأخجل وأنزوى وألتزم الصمت .

ـ ينتهك أحدهم جسدك وتكتفين بالصمت !

ـــ تنهدت حياة وقد أثارت كلمات سعاد ذاكرة ليست سوى شريط طويل من الانتهاكات النفسية والجسدية والتى لم تستطع على مدار حياتها أن ترفع يدا وتصفع أحدهم بقوة فيما تقول ... إياك أن تمس إرادتى .

لاحظت سعاد شرودها فسألتها مداعبة :

ـ أين ذهبت ؟

ـ لم أذهب ولكن يجب أن أذهب .

وقفت ثم همت بالانصراف ، استمهلتها سعاد لبعض الدقائق ريثما يدق الجرس معلنا انتهاء الفسحة .

لم تجلس حياة وإنما ظلت واقفة تنظر من النافذة فيما تسأل :

– هل أحواض الزهور تلك كانت موجودة من قبل ؟

فتجيبها سعاد :

ـ بالطبع كانت موجودة .

– كيف لم أرها من قبل !

– يحدث أن لانرى الأشياء الأكثر قربا منا .. ربما لأننا ألفناها ، وربما لأن بداخلنا أشياء قاتمة تحجب عنًا الرؤية .





عاد حامد إلى بيته حاملا معه مرآة كبيرة ليضـــعها أعلى حوض غســـل الوجه عوضـــا عن تلك التى كســـرتها حياة التى ما إن رأته حتى همت لملاقاته عند باب الشقة بابتسامة كبيرة ، ساعدها على التحلى بها ذلك الانتشاء الداخلى الذى تشعر به .

بعد أن ثبت المرآة أعلى الحوض تناول غداءه وذهب لأخذ قيلولته ، لحقت به إلى غرفة النوم تحمل كوبا من الشـاى بالنعناع الأخضـر ـ كما يفضله ـــ وضعته بجواره ، استبدلت ملابسها ، صففت شعرها وتعطرت على غير عادتها معه ثم جلست بجواره :

- أعجبك الشاى ..؟

- نعم إنه تماما كما أحب ... وأنت أيضا .

- أنا ماذا ؟

- أنت الآن كما أحب .

حياة وقد بادرته قبل أن يهمَّ بها قائلة :

- لم تسألنى عما حدث اليوم .

- ماذا حدث ..؟

قصّت عليه كيف أنها ذهبت لأخذ توقيع مدير المدرسة على طلب مدّ الإجازة تمهيدا للذهاب إلى الإدارة التعليمية بعد ذلك وكيف أن المدرسين أصبحوا يلتزمون فقط بمواعيد حصصهم ثم أردفت موضحة :

يعنى هذا أنك ستجدنى متى عدت فى البيت كما أن تواجدى بالمدرسة سيجعلنى بالقرب من حسناء خاصة أنها فى عامها الأول... وحين لاحظت صمته وهدوءه عرضت عليه بنبرة امتزج فيها الدلال بالاستعطاف :

ما رأيك لو أواصل العمل لهذا العام الدراسي وبعدها أحصل على الإجازة فى أى وقت تريد ؟

يأخذ رشفة من الشاى مبديا إعجابه بمذاقه ورائحته .

يداعبها الأمل بأنه قد يعدل عن موقفه الرافض فتستأنف حديثها بصوت هادئ وقد اقتربت منه أكثر :

ـ أعدك أن لا أقصر فى واجبى تجاهك أو تجاه بيتى وإذا صممت على مدّ الإجازة فسأفعل .

صمتت برهة وهى تنظر فى عينيه تترقب رد فعله .

أخذ رشفة أخرى من الشاى على مهل ثم قال :

- لامانع إذن من مواصلة العمل مؤقتا لكن توقعى أن تتركيه فى أى وقت إذا عدلت عن رأيى .

- لك ما تريد .

تذهب إلى المدرسة تخطو بخفة وكأن رياحا قوية معبأة بعبير رائع تحث خطاها حتى وصلت إلى مكتب المدير ، طرقت على الباب تستأذن فى الدخول فإذا بصوت قد أتى من خلفها قائلا :

- صباح الخير أستاذة حياة ..

- إلتفتت تنظر إليه :

- صباح الخير ..

فتح باب مكتبه ودخل داعيا إياها للدخول ، جلس وجلست قبالته .

سألها عما إذا كانت قد قررت مواصلة العمل فأجابته أنها قد أتت لاستلام العمل ، ابتسم مبديا ارتياحه لهذا القرار .

شكرته وانصرفت على حال لم تعهدها فى نفسها من قبل ليعاود قلبها الخفقان ، ترى التلاميذ فى فناء المدرسة يتقافزون كفراشات فرحة تتناغم صياحاتهم مع زقزقة العصافير التى سمعتها فقط لتوها !

أصبحت أكثر خفة ونشاطا ، صارت أكثر حميمية وهدوءا حتى أنها ما عادت تتحدث إلى نفسها فى المرآة كعادتها ، لكنها بالرغم من ذلك لم ترفع الستارعنها وكأن هناك ما تتجنب النظر إليه .

ـ ماذا يحدث لقلبك ياحياة..؟

كنت تقولين إن الحب كالعفريت الذى طالما سمعت عنه ولم تبصريه ، أهو ما تشعرين به الآن ؟

أهذا هو الحب ..؟ أيسرى هكذا فجأة فى شغاف القلب فيخفق معلنا عن وجوده فى تجويف صدرك مؤكدا أنه مازال حيا وأنه يمكنه أن يدق لشيء غير الخوف الذى لازمك طوال حياتك ابتداءًا بأبيك وصولا إلى زوجك مرورا بالناس والعيب والحرام ؟

تذكرت صغيرتيها ، عاتبت نفسها على هذا الشعور وحاولت مقاومته بكل ما أوتيت من خوف .

راحت تضمهما بقوة كأنما تستقوى بحضنيهما على ذلك الإحساس الذى بدأ يعتمل فى قلبها ولسان حالها يقول : إدخلا إلى أعماق قلبى ، إملآه ، لاتتركا فيه ركنا خاليا لأحد سواكما .

كانت تحتمى بجدران بيتها تستحلفها أن لاتسمح لطيفه ولا لعبيره بالمرور إليها ..

تســتجير بأى ذكرى تعدها طيبة لحامد ، بأى كلمة طيبة كان قد نطق بها فى أى يوم فتحاول التـشبث بها وترديدها ، تحاول أن تـشوش على صــورة أحمد التى بدأت تتراءى لها أينما ذهبت ، وعلى صــوته الذى أخذ يتردد على سمعها طيلة الوقت .

لا تدرى لماذا لامس حبه قلبها بتلك السرعة ، ألأنه صادف قلبا خاليا متعطشــا للحب ؟ أم لأنه يشـــبه كثيرا فتى أحلام طالما راودتها فى سنوات صباها ؟

لم تتخيل للحظة أنه موجود بالفعل ، كانت تظن أن الأحلام لا يمكن أن تتخطى كونها أحلام حتى رأته رأى العين جالســا فى اطمئنان وثقة أن هناك قوة خفية تعمل عملها فى قلبها الذى لم يسبق له أن مسَّه بشر .

***



لم يغفر صـــابر أبدا لزوجته ماذكرته فى المجلس العرفى ورأى أن الطريقة الوحيدة والمثلى لاسترداد كرامته والانتقام منها هو أن يتزوج عليها بأخرى ..

تلقت سعاد الخبر بشيء من الدهشة فى البداية ثم أعقبته بشيء من اللا مبالاة عكس ما كان يتوقع منها .

قابل عدم اكتراثها بضـيق شـعر به فى داخله ولم يبده لها ، أما هى فبرهنت له عدم اكتراثها بطريقة قاطعة وعملية فلم تثر ولم تعترض مؤكدة بذلك أنها لاتهتم لأمره كما أنها فوتت عليه فرصـة التلذذ بالانتقام منها وإذلالها أو حتى إثارة غيرتها .

زاد تجاهلها له من إصـراره على المضـى قدما فيما انتوى وبالفعل تـقـدم لـخـطـبـة فـتـاة شـابـة فى بـدايـة الـعـشـريـنـات ، لم يسبق لها الزواج ، على درجة من الجمال من قرية مجاورة .

بنى حائطا فى وسط الشقة الكبيرة التى يعيش فيها مع سعاد مقسما إياها بذلك إلى شـقتين صـغيرتين ببابين متجاورين بناء على رغبة العروس الجديدة التى أرادت أن تنعم بالخصوصية .

تعجبت سـعاد من أمر تلك العروس الجديدة ، كيف وافقت وأهلها على الزواج من رجل يكبرها بما يقارب الخمسـة عشـر عاما وليس بالثرى ولا بالوسيم !

تم الزواج ودخل صابر بعرو سه ، فى حين لم تبرح سعاد شقتها كما اقترحت عليها أمها ناصـحة إياها أن تبتعد قليلا فى الأيام الأولى حتى لاينتابها شـعور بالغيرة لكن سـعاد أصـرت على البقاء فى شـقتها بل واسـتقبال العروس الجديدة اسـتقبالا طيبا تحدث الناس عنه وعن رزانة عقلها وحسن تصرفها .

فى حين أنها لم تفعل ذلك لتحوز على إعجاب ومباركة أحد من الناس بقدر ماكانت ترى أن صابر لايعنيها سواء تزوج أم لا ، كما أنها تعرف مسبقا أن حال الزوجة الجديدة حتما ستؤول إلى ما آلت إليه حالها إن عاجلا أم آجلا وهذا مااحتفظت به لنفسـها ولم تبده لحياة عندما سـألتها عن كيفية شـعورها تجاه مافعله زوجها وإنما أكدت لها أنها تأخذ الأمور ببساطة وتعتبر الزوجة الجديدة بمثابة أخت لها .

تتعجب حياة من سـعة صـدرها مؤكدة لها أنها منذ أن عرفتها وهى مأخوذة بشجاعتها وقوة إرادتها وروحها الطيبة ، فتعلق سعاد قائلة :

- لاتبالغى كثيرا ، إن بداخل كل منا جزءا شـيطانيا يزيد وينقص من إنسـان لآخر ومن وقت لآخر داخل نفس الإنسـان ، الفارق هنا أن هناك من يحاول مقاومة هذا الجزء الشـرير فى نفسـه وهناك من يستسلم له حتى يتمكن منه ..

تضحك حياة مداعبة :

– أفهم من هذا أن بداخلك شيطانا صغيرا ..؟

تؤكد سعاد بنبرة جادة :

– بداخل كل منا شيطان سواء أكان كبيرا أم صغيرا .

حياة وقد أصرت على مداعبتها :

ـ وأين الملائكة إذن ..؟

– نائمة فى عيون الأطفال الصــغار الذين يجلســون فى الفصــول بانتظارنا .



بينما كانت حياة تقوم بشرح أحد النصوص الأدبية إذا بأحد العاملين يطرق باب الفصل مخبرا إياها بأن الأستاذ أحمد ينتظرها فى مكتبه بعد انتهاء الحصة .

جلست قبالة رجل يرتدى جلبابا أبيض ، له لحية كثة ، خافضا رأسه بعض الشيء متحاشيا النظر إليها . .

نظرت إلى الأستاذ أحمد مستفسرة عن سبب استدعائها فسألها إن كانت لديها فى أحد فصولها بالصف السادس تلميذة اسمها خديجة سليمان ..؟

تصمت برهة تحاول التذكر ثم تقول :

نعم عندى تلميذة بهذا الاسم ، ماذا بشأنها ..؟

- هذا والدها يدعى عليك بأنك تبثين فى عقل ابنته أفكارا مناهضة لكتاب الله وتحفزينها على التمرد ..

- أنا ..! كيف .. ؟

وهنا يتدخل ولى الأمر وبصوته شيء من الحدة :

- أو لست أنت من تخبرينها بأن المرأة كالرجل فى كل شيء ؟

- أنا بالفعل ذكرت أن النساء والرجال متساوون فى الحقوق والواجبات وأن الرجال ليسوا بأفضل من النساء فى شيء .

- كيف يا أ ستاذة تقولين مثل هذا الكلام ؟ أنسيت قول الله تعالى: « وللرجال عليهن درجة » لقد تسببتِ بأفكارك الخاطئة فى تبجح ابنتى وتمردها .

ـــــ أفكارى ليســت خاطئة وأنت من يجب عليه أن يعيد قراءة الآية ويفسرها تفسيرا صحيحا .

وهنا غضب ولى الأمر وزاد صوته حدة :

- إذن فأنت بالفعل تخربين عقل ابنتى وتشجيعنها على التمرد .

- بل أعلمها كيف تحترم آدميتها .

وهنا تدخل الأستاذ أحمد قائلا :

- هدئ من غ ضبك يا شيخ سليمان ، الأ ستاذة حياة هى واحدة من أكفأ المدرســات بالمدرســة ولم تكن تقصــد تحفيز ابنتك على التمرد بقدر ما كانت تقصد بث الثقة فى نفوس تلميذاتها .

لم يعجب هذا الكلام ولى الأمر واتهمه بالتواطؤ معها وأقسم أنه سوف يسحب ملف ابنته من المدرسة كلها وانصرف .

انتهت من يومها الدراسى وبينما هى مارة بمكتبه فى طريقها للخروج إذ ناداها :

ـ أستاذة حياة ..

توقفت فى مكانها ثم إلتفتت إليه وخطت بضع خطوات باتجاهه .

ـ تفضلى بالجلوس دقائق .

جلست قائلة :

– أعتذر أننى تسببت فى ...

قاطعها :

ـ لاتعتذرى لأنك لم تخطئى وأريدك أن تواصلى عملك بنفس الطريقة التربوية المتحضرة ، أنت بحق مدرسة متميزة .

شكرته على حـ سن تفهمه وا ستأذنته فى الانـ صراف ومـ ضت بعد أن حركت كلمات الثناء فى نفسها ما كانت تحاول إخماده جاهدة .

تأتى ابتسـامته الهادئة كالومض الخاطف يبرق داخل كهف مظلم ، عادت فى ذلك اليوم و بها شـيء مختلف ، شـيء جعلها تمعن فى الانهماك أكثر فى أعمالها المنزلية بشـكل ملحوظ ، صـارت خطواتها داخل البيت سريعة ومتلاحقة كأنما تهرب من شبح يطاردها .. تنتهى من المطبخ .. تدخل الى الصـالة .. ومن الصـالة الى غرفة ابنتيها ومنها الى غرفة نومها التى كانت قد رتبتها بالفعل .

نظرت حولها تبحث عن أى شـيء تفعله ، لاحظت أن الغطاء الذى غطت به وجه مرآتها قد تغبر .

خطت نحو المرآة خطوات لم تكن بنفس خفة خطواتها السـابقة ، أمسكت بطرف الغطاء وجذبته برفق وظلت تحدق فى المرآة :

- أنت .. !

- نعم أنا ، وهل تغير فىَّ شيء ؟

- ربما ،

- ربما ..! هذه كلمة رمادية لاتنفى شيئا ولاتؤكده .

- إذن لا شيء تغير .

- لاشيء تغير فى أنا أم فيك أنتِ ؟

- أنت أنا ، انظرى إنه نفس جسدى ووجهى وعينىَّ .

- لكن عينيك بهما شيء مختلف .

- ربما الكحل ..

- الكحل جمال خارجى ، أما ما أراه فهو بريق بلورة ماسـية تلمع فى قاع بئر مظلم .

- لاأعرف عما تتحدثين .

- أنت تعرفين ولكنك لاتجرئين .

- سأنصرف الآن ...

- تهربين ... ؟

ـ أهرب .. ! مم ..؟

- من الحب .

- الحب لمثلى خيانة .

- إن لم تأكلى وتشربى يذبل جسدك ويمت وإن لم تحبى تذبل روحك وتمت والموت هو الخيانة العظمى للحياة .

- سأذهب لأغسل وجهى .

- اغسليه ألف مرة لن تستطيعى أن تمحى آثار البريق الذى يشع من أعماقك ، سيبصره كل من ينظر فى عينيك .

- هل يبصره حامد ؟

- حامد يرى ولا يبصر .

ـ إذن فمن ؟

تنزوى حياة بعيدا عن المرآة ، تقبع صـــامتة ، تبدو من هيئتها هادئة بينما تتقاذفها أمواج متلاطمة فى بحر من الأفكار والتســاؤلات والمخاوف ..

تجلس وزوجها وإبنتاها يشــاهدون أحد البرامج على إحدى القنوات التليفزيونية ، تنظر حولها ، تتأمل الصورة التى التقطتها عيناها لتعاتب نفسها :

ـــ ماذا ينقصك لتكونى سعيدة ..؟ لماذا لاتكون الصورة بداخلك كما هى أمام عينيكِ ..؟

لماذا تشــعرين دائما أن هناك أحدا غائبا وقد ترك مقعده الخالى فراغا كبيرا ابتلع إحساسك بالسعادة والرضا ؟

قاطع شرودها صوت حامد :

حان وقت النوم ، هيا يافتيات إلى غرفتكما

أطفأ التلفاز وطلب منها أن تلحق به فى غرفة النوم ..

لحقت به بعد أن اطمأنت على ابنتيها فى فراشــيهما لتجده جالســا فى انتظارها ، نظر إليها نظرة فهمت مغزاها .

مد يده وســحب قميصــا من دولاب ملابســها ثم ناولها إياه كعادته معها كلما أرادها ، مدت يدها وتناولت منه القميص ثم دخلت إلى الحمام الملحق بغرفة نومهما .

نظرت إلى القميص تحدق فيه وتقلبه بين يديها :

ــــ لن أرتديك ، لا أحب ملمسـك .. ولا لونك .. ولا عطرك ، لن أســمح لك بتغليف جســدى بلونك البغيض ، أنت أضــيق من أن تحتوينى ، لن ....

ينادى عليها ، يحثها على الإسراع .

لم تنتبه ، مازالت مستغرقة فى إطلاق لاءاتها .

ـ لن أدعك تعبث بى ، لا أحبك ولم أحبك فى يوم من الأيام ، لا ...

يقاطعها صوته :

ـ هل غلبك النوم فى الحمام ؟

بعد حين خرجت كما دخلت بنفس ملابســها والقميص مازال فى يدها ، نظر إليها مندهشا ومتسائلا :

ـ أهناك عائق شرعى ؟

وكأنما قد أوحى لها بما تقول :

ـ نعم ..

يتأفف ، يمد يده ، يضغط بغيظ على زر النور ساحبا عليه الغطاء .

لم تنم وإنما خرجت بهدوء وأغلقت الباب ، جلست فى الصالة تتأمل ماحولها من جدران ، تتوقف عيناها على صــورة زفافها فتحســها وكأنما هى جثة إرادتها قد صلبت على الحائط ، تتأملها ..

ثمة فراغا يفصل بينهما ، تبدو عيناها فى الصورة تنظر إلى أسفل وكأنما كانت تبحث عن شيء ما سقط منهما ولم تجده أبدًا !

تتذكر لحظة التقاط الصورة عندما طلب المصور منهما أن يقتربا من بعضهما أكثر وأن ينظر كل منهما فى عين الآخر ، لكنهما لم يفعلا وكأن هوة سحيقة وباردة ومظلمة قد حالت دونهما .

تعاتب نفسها :

ـ لماذا لا أرفض ؟

.. لماذا أهمس دائما ؟

.. لماذا لا أُعلى صوتى وأقول لا لما لا أريد ؟

لماذا لا أخبره أنى لا أحبه ، لست سعيدة فى حياتى معه ، لم أشعر بالارتواء معه ولو مرة واحدة .. أحقا أنا أعانى من البرود كما يتهمنى دائما ؟ أم أن ذلك يعود إلى عدم رغبتى فيه ، كما لم أرغب فى زواجى منه ، لم أختره ، ولم أختر أى شيء فى حياتى ابتداء من ا سمى و صولا إلى أسماء بنتيّ كما اختار لى فرش بيتى وملابسى .

هل قهر إرادتى كان هو الثمرة التى ألقت بها شجرة الخوف التى غرست بذرتها فى قلبى منذ كنت طفلة ؟

أسئلة كثيرة تعتصرها كأذرع أخطبوط تلتف حول رأسها لاتملك لها دفعا ولا ردا .

كما لا تملك ردا لذلك السؤال الذى طرحته عليها سعاد فى إحدى جلساتهما معا عندما توجهت إليها كأنما تستجدى بشارة تمنحها الصبر على جفاف ريقها بأن هناك فى آخر صحراء الحرمان القاحلة عينا تفيض بالماء العذب ستشرب منها حتى الارتواء وتتلذذ حتى الانتشاء، فتسألها قائلة :

ـــ أسيكون لنا نحن النساء رجال يمتعوننا فى الجنة كما للرجال من حور العين ؟

حينها طلبت منها حياة خفض صوتها خشية أن يسمعها أحد وأخبرتها أنها لايجب أن تتفوه بمثل هذا الكلام أمام أى شخص آخر .

لم تنس أبدا نظرة سعاد ونبرة صوتها الجادة وهى تقول :

ـــ أنا فعلا أريد أن أعرف أسيكون لنا هذا ؟ أم أن ذلك أيضا مقصور على الرجال ؟

كانت عيناها تلمعان ببريق كأس ملأى ما تكاد تلمسها حتى تنسكب وتتركها أكثر ظمأ ..



تمضى الحياة طبيعية بين صابر وزوجته الجديدة وردة مما أثار حيرة سعاد وتعجبها وهذا ما أسـرت به لحياة التى أرجعت السـبب إلى أن هذا قد يكون بسـبب اختلاف الطبائع فيما بين النسـاء فما لاتقبله سـعاد قد تقبله وردة .

تستأنف حياة حديثها متسائلة :

ـــ ثم ما أدراك أنها راضية بحالها ؟ أليس من الجائز أنها أيضا غير راضية ولكنها تلتزم الصمت وخصوصا أنها كما أخبرتنى أنتِ ليس لها أصدقاء ولا معارف فى البلد فمن أين لك أن تقولى بأن الحياة تمضى بينهما طبيعية ؟

– أحيانا أشفق عليها من وحدتها طوال الوقت وخصوصا أنى لم ألحظ أحدا من أهلها يزورها .

– لماذا لاتتقربين إليها وتحرصين على مودتها ؟

– خطر لى أن أفعل هذا لكنى ترددت .

– لماذا ؟

– خشيتُ أن تسيىء فهمى .

– حاولى ولن تخسرى شيئا .

– مارأيك أن تأتى معى لزيارتها ؟

- لامانع عندى ولكن يجب أن أستاذن زوجى فى ذلك .

طلبت من حامد الإذن بزيارة زوجة صابر الجديدة فلم يبد معارضة .

ذهبت بعدما هاتفت سعاد وأعلمتها بقدومها فتلك هى المرة الأولى التى تزور فيها صديقتها فى بيتها .

ألقت حياة نظرة سريعة على الشقة كما طلبت منها سعاد ، أبدت إعجابها بذوقها الراقى فى تزيين شقتها الصغيرة التى هى عبارة عن حمام ومطبخ وغرفة نوم واحدة وصالة كبيرة زينتها بمجموعة من أصص الموزاييك نبتت فيها بعض أنواع نباتات الظل التى أضفت جوا من الجمال والبهجة على المكان .

توقفت عينا حياة على قفص به عصفوران أخضران من إحدى فصائل الكناريا بعث تغريدهما نوعا من السكينة والرغبة فى الجلوس والاسترخاء .

دعتها سعاد للجلوس إلى حجرة الا ستقبال ، جلست حياة لتجد عن يمينها حوضا زجاجيا به مجموعة من أسماك الزينة الملونة .

تسألها حياة وهى مأخوذة بما ترى حولها :

- ما كل هذا الجمال الذى تحيطين به نفسك يا سعاد !

– أشــعر معهم بالصــحبة ، عندما أفتح باب الشــقة عائدة من العمل أتخيل أنهم ينتظرون عودتى بفرح ولهفة .

– لكنى مشفقة على العصفورين من حبسهما فى هذا القفص الصغير، لابد أنهما يتوقان إلى الطيران .

ـ لا أظنهما يتوقان إليه .

– كيف لا وقد خلقا ليعيشا بحرية ؟

– فى البداية عندما اشــتريتهما كنت ســعيدة بهما أجلس إليهما أمتع أذنىّ بتغريدهما ثم مالثبت أن شــعرت مثلكِ بالشــفقة عليهما وبعد تردد لم يطل فتحت لهما باب القفص بعد أن وضــعته فى الشــرفة واختبأت قليلا أراقبهما من بعيد فلم يحاولا الخروج ، تركت باب القفص مفتوحا وذهبت لأعد كوبا من الشــاى وعدت بعد حين فوجدتهما ما زالا فى مكانهما ولم يبرحا ..

تستأنف سعاد حديثها وهى تعد لحياة طبقا من الفاكهة :

ولولا أنى أخشــى عليهما من أذى أى حيوان قد يفترســهما لتركت باب القفص مفتوحا طوال الوقت .

– هذا شيء مثير للدهشة .. ربما لايمكنهما الطيران لعلة ما .

تنظر سعاد الى العصفورين فى أسى وتقول :

- وربما لأنهما لم يعرفا الطيران.

- لا يعرفان الطيران ! كيف وهما طائران ..؟

- لايعرفانه لأنهما لم يجربانه ، إنهما قد جاءا من أبوين أيضا كانا يعيشان فى قفص ومنذ ميلادهما وحتى الآن وهما فى قفص ، فمن أين لهما بمعرفة الطيران .؟

- إنها الفطرة يا سعاد .. الطفل يولد من رحم أمه يعرف طريقه إلى حلمة ثديها ، ويعرف كيف يرضع لبنها قبل أن تتفتح عيناه ودون أن يحتاج إلى من يعلمه .

- الطفل يولد من رحم أمه على الفطرة ، كل الأطفال لحظة الميلاد متشابهون فى ذلك ولكن يحدث بعد ذلك أن يرضع لبن أمه ويتعلم لغتها ويتشرب طباعها ، هنا يختلف الأطفال .

- هذا أمر طبيعى يجب أن يرضع ويتكلم ويتعلم الفرق بين الصواب والخطأ .

- وهنا مربط الفرس .

- ماذا تقصدين ..؟

- ماهو إذاً معيار الصواب والخطأ ...؟

- إنه يختلف من بيئة لأخرى ومن زمن لآخر.

– إذن تختلف القيم والقوانين وتختلف الثقافات فما هو مسموح هناك قد يكون ممنوعا هنا والعكس صحيح ..

تندهش حياة مما تسمعه فيما تستأنف سعاد حديثها متسائلة :

في بعض الحضارات كانت المرأة تقدس وينظر إليها على أنها واهبة الحياة وفي بعضها الآخر كانت تُوَرث مثلها مثل أى متاع كما أقر أرسطو الفيلسوف العظيم الذى كان يحتقر المرأة ويضعها فى منزلة وا حدة مع ما يمتلك الر جل من حيوان ، حتى أن بعض الأد يان السماوية تعاملت معها على أنها أقل درجة من الرجل وأنها أصل الخطيئة والغواية بل وأقر بعضها بضرب الرجل للمرأة ، فأى عدل فى ذلك وأى ظلم أكبر من أنها تقابل أحيانا لحظة ميلادها بالأسف فيما يقابل ميلاد الذكر بالفرح ونحر الذبائح وإقامة الولائم .

ـــ عندك حق فكم كنت أذكر حامد بأن الفرح لميلاد الذكر والحزن والأسف لميلاد الأنثى من عادات الجاهلية .

ـ وهل حامد لا يحب إنجاب البنات ؟

ــ اغتم حامد كثيرا عندما أنجبت حورية ، فقد كان طوال فترة الحمل ينادينى بأم حسن على اسم والده وما إن وضعتها وأخبروه أنه صار أبا لفتاة لم يستطع أن يخفى حزنه ، فى المرة الثانية عندما كنت حاملا فى حسناء أصرّ أن يعرف نوع الجنين وهو مازال فى رحمى

وعندما علم بأنها أنثى لم يوارى حزنه وإنما جهر به وندب حظه ، على كل حال نحمد الله أننا لم نولد فى ذلك الزمن الذى كانوا يئدون فيه الإناث ويستعبدون فيه النساء .

– ومن قال لك أننا سلمنا من الوأد وأننا صرنا أحرارا ..؟ ، لو كنت حرة لما كُســرت يدى وأنا أحاول التخلص من حياة لا أرغبها ، أنا وإن كنت سلمت من وأد الجسد فلم أسلم من وأد الحرية .

– هذه أول مرة أســمعك تتحدثين فيها هكذا ، يبدو أن دراســتك للفلسفة قد جعلت منك فيلسوفة.

– ليست الدراسة بقدر ماهى الحياة .

– الحياة ليست بهذا السوء ولا بهذه القسوة يا سعاد .

– الحياة فى حد ذاتها ليســت قاســية وإنما الذين يعيشــونها .. دعينى أطرح عليك سؤالا .

– تفضلى .

– أسمعت عن فتاة تدعى فؤادة صالح ..؟

– نعم سمعت عنها .

– ماذا سمعت ؟

– سمعت أنها ـ والله أعلم ـ فتاة منحرفة ..

– فؤادة كانت صـــديقة لأخت زوجي الأول ، أنا أعرفها جيدا ، فتاة جميلة فى منتهى الطيبة والبساطة وقعت فى المحظور حين أحبت شابا كان صـــديقا لأخيها الأكبر ، أغراها هذا الشـــاب باســـم الحب واعدا إياها بالزواج ثم كان ما كان فى مجتمع لا يرحم .

أتعرفين ماذا حدث بعد ذلك ..؟

– ماذا ..؟

– تزوج الشاب من فتاة أخرى رحب به أهلها غافرين له ما علموه عنه مبررين ذلك بأنه « طيش شباب » !

بعد ذلك عاش الشـــاب حياة طبيعية وســـط أهله ومع زوجته ، أما هى فقد انضـــمت إلى قائمة المطرودات من رحمة المجتمع إلى جحيم المجهول .

– لكن مافعلته كان خطأ وحراما .

– أنا معك .. ولكن المساواة فى الظلم عدل ، كان يجب أن يحاسب المخطئ سواء أكان رجلا أو امرأه بنفس المعيار .

– عندك حق ، أخذنا الحديث الشيق ونسينا زيارتنا لوردة .

– لحظة واحدة سأصعد إلى السطح لأقطف بعض الورود ونأخذها معنا كهدية لها .

- هل تزرعين السطح يا سعاد ؟

- نعم .. أتودين الصعود معى ؟

رحبت حياة بهذا وصعدت معها لتذهل من جمال ما رأت ، لقد حولت سعاد سطح بيتها إلى مايشبه الحديقة ، تنظر فى عجب قائلة :

- أكل هذه زهور ونباتات تزرعينها !

- مجرد هواية .

توجهت سـعاد لقطف بعض الوردات المتفتحة حتى جمعت باقة مختلفة الألوان خصت حياة منهن بوردة حمراء يانعة ثم هبطتا .

طرقات خفيفة على باب شقة وردة بقبضة يد سعاد ...

انتظرتا برهة ثم ما لبثت حياة المتعجلة للعودة إلى بيتها أن طرقت طرقتين أقوى بعض الشيء .

فُتح الباب فإذا بشـابة بيضـاء ممشـوقة القوام ، ذات شـعر بنى ناعم منسـدل على كتفيها ، ترتدى قميصـا حريريا مائلا للزرقة ، ابتسـمت مرحبة بهما ثم دعتهما للدخول ، ناولتها سـعاد مجموعة الورود التى تحملها وهى تداعبها قائلة :

ـ جئت لك بباقى أخواتك ياوردة .

ضحكت وردة :

ـ أشكرك على رقتك .

تبتسم سعاد وتقول :

ـ أعرفك على صديقتى حياة ..

ترحب بها وردة :

ـ أهلا بكِ ، تفضلا بالجلوس .

تشكرها حياة وتجلس قائلة :

ـــــ ســعاد كلمتنى عنك بكل خير وأرجو أن تعتبرينا كأختيك ، إن احتجت أى شيء فلا تترددي فى طلبه .

يمضــى الوقت فى حوار ود متبادل بين ثلاثتهن ثم ما لبثت حياة أن استأذنتهما فى الانصراف .

عادت حياة من زيارتها لسعاد ووردة أكثر سعادة لما رأته من نموذج لم تألفه فى الحياة بين ضرتين وكيف كانت سعاد تضرب مثلا رائعا فى التعامل الإنســانى الراقى وكذا وردة التى بادلتها ذلك بالامتنان الجميل ..

كانت أيضا ما تزال مندهشة مما رأته عند سعاد فى شقتها التى ملأتها بالنباتات والعصــافير وأســماك الزينة وكلها أشــياء نابضــة بالحياة والجمال .

تلك هى سعاد التى طالما أُخذت بـ شجاعتها وقوة شخ صيتها ورقة مشاعرها

يتردد على سمعها حديث سعاد عن الفطرة التى خلق الله الناس عليها وكيف أنهم أفسدوها ..

نظرت إلى الوردة الحمراء التى أهدتها إياها سعاد ، قربتها إلى أنفها ، اشتمت عبيرها ثم نادت حسناء وحين جاءتها قبلتها وساوت خصلات شعرها بأصابع يدها ثم وضعت الوردة الحمراء بينهن فما كان من الصغيرة إلا أن هرولت لتنظر إلى صورتها فى المرآة وحين وجدتها مغطاة، صاحت :

ـ ماما .. أزيحى هذا الغطاء ، أريد أن أرى وجهي جميلا ، أريد أن أرى الوردة .

فى صباح اليوم التالى لتلك الزيارة هاتفت حياة سعاد وعرضت عليها أن تأتى لزيارتها فى أى وقت يناسبها ، فشكرتها سعاد ووعدتها بذلك فى أقرب فرصة .

تستدرك حياة قائلة :

ـــ ولكن شقتى ليست بجمال شقتك التى ينبض كل ركن فيها بالجمال والحياة .. أنت بحق تعرفين كيف تصنعين الجمال .

- أحاول بث الحياة فيما حولى لكنى أبدا لا أستطيع أنا أبثها فى داخلى .

ـ لم تقولين مثل هذا الكلام !

ـــ كثيرا ما أشعر أنى كشجرة غير مثمرة تساقطت عنها أوراقها فلا ظل ولا ثمر ، لاشيء أعيش لأجله ..

- لا أحب أن أراك حزينة هكذا وأنا الذى عهدتك إنسانة تشع بهجة ومرحا .

- أتقصدين أنى أضحك وألقى النكات أحيانا ، هذا قناع أرتديه كلما خطوت خارج بيتى وأخلعه عندما أعود وأبقى وحدي ، لا حب ولا أبناء ولا حتى زوج ..

- كيف ؟ وأين ذهب صابر ؟

- صابر لم يأتِ لكى يذهب ، أنا لا أراه حتى لو كان أمام عينى أقول فى نفسى ربما لو كان معى طفل أحتضنه لما شعرت بوحدتي .

- الأطفال نعمة كبيرة وإن كان الله قد حرمك منها فمن المؤكد أنه عوضك بنعمة أخرى تساويها فالبشر كلهم متساوون فى عطاء الله .

- ليس هذا صـحيحا ، انظرى حولك سـتجدين أناسـا لديهم المال والصـحة والجمال والأولاد والحب أيضـا ، وهناك على الجانب الآخر أناس حرموا من كل هذا ، قد تجدين من لا مال ولا صحة ولا جمال ولا حب عنده ..

- الرضـا والقناعة هما نعمة كبيرة قد تعدل كفة الميزان فلا ابتلاء مع الرضا ولا فقر مع القناعة .

- الرضا ليس خيارنا وإنما هو قدرنا .. ماذا يملك الإنسان إن لم يرض ..؟

- من صبر فله الجنة ..

- ومن لم يصبر فله النار ، ويصير معذبا فى الدنيا والآخرة ؟

- ماذا دهاكِ يا سعاد ! استغفرى الله .

- اعذرينى يا حياة أنا فى ضيق .

- ماذا حدث يا حبيبتى .. أخبرينى ؟

- حدث ما يحدث كل يوم لكنى أحيانا أشـعر أنى ماعدت أحتمل تلك الحياة التى لاماء فيها ولا زرع .

– صـــدقينى يا ســعاد الأمومة أعم وأشـــمل من أن تلدي طفلا ، إنها اســتعدادا فطريا للعطاء .. يمكنك أن تمارســى أمومتك مع كل من حولك .. مع تلاميذك ، مع عصـــافيرك ونباتاتك ، ما الفرق بين أن ترضعى طفلا أو أن تسقى حيوانا أو تروى زرعا ؟ أنت فى الحالتين تقدمين لمخلوق ضـعيف ســببا من أســباب الحياة ، كونى أما كبيرة لكل من حولك .

8

يجن الليل وتأوي سعاد إلى فراشها الذي وإن شاركها فيه صابر إلا أنه لم يتسع يوما إلا لوحدتها .

فراش لم تشعر فيه سوى ببرودة تحيط بها ، برودة لم تكن يوما لتلطف من صهد تلك النيران المتأججة بداخلها إن لم تكن تزيدها شراسة ، فتأوى إلى عالمها الخاص ، تتلمس ذلك الشعاع الدافئ الهابط إليها من سماء الحلم الرحبة ، عالم افتراضى أبدعه خيالها المتمرس على خلق كل بواعث النشوة ، حيث أن كل شيء مسموح ومهيأ لممارسة طقوس الحب والارتواء من تلك الكأس التى ما دانت لها يوما بين يدى صابر .

إنه الرجل كما تصبو ، يهمس فى أذنها بما تهوى ، يتلمس تفاصيل أنوثتها ، انعطافاتها .

تستغرق فى تخيلاتها ، ترتشف الكأس عن آخرها ، تنتشى ، لكنها ما إن تنتهى حتى تعود أكثرظمأ ، تمد يدها تتناول زجاجة الماء التي بجوارها ، تعب منها ولكنها أبدا تظل ظامئة .

تلك الخيالات كما كانت متنفسا لها كانت أيضا مصدرا لتأنيب ضميرها فهى عقب تلك اللحظة التى تستجدى فيها النشوة الكاذبة ترى نفسها إنسانة شهوانية .

فى كل مرة كانت تشـعر فيها بالندم وتعزم على ألا تعود لكنها ما كانت تلبث حتى تعود ، لا تدرى إن كان هذا يعد خطيئة تحاسـب عليها أم أنه سياج يعصمها من الوقوع فى خطيئة أكبر ؟

أســرت إلى حياة ببعض ما يعتمل فى صــدرها وأفضــت إليها بندمها وعجزها عن عدم قدرتها على مقاومة هذا الفعل منها لتجيبها حياة أنه ليس على النائم حرج ..

تعقب وبها شــيء من الخجل أن هذا لا يحدث فى الحلم دائما وإنما فى اليقظة أيضا .

تنكسر نظرتها وهى تتساءل :

ـ هل أنا شهوانية ..؟

– لا يا سـعاد أنت إنســانة طبيعة وما يعتمل فى داخلك إنما هو غريزة طبيعية خلقنا الله بها وحاجة فطرية تماما كحاجتنا إلى الطعام والشراب والتنفس ..

– لا أعرف ماذا أفعل

– حاولى إقناع زوجك بالذهاب إلى أحد الاطباء وطلب العلاج ، صارحيه برغبتك فى هذا .

- كان بالفعل يذهب ولكنه لم يشأ أن يطلعنى على ذلك .

- وكيف عرفت إذن..؟

- عثرت فى ذات مرة على روشـــتة طبيب مختص بأمراض الذكورة والعقم .

- معنى هذا أنه يحاول وقد يشفى .

- حتى وإن شفى فلا أظن أن هذا سيغير شيئا .

- كيف ..؟

- صـــابر له روح وطباع مختلفة عنى تماما ، هو طيب لا أنكرهذا ، لكنه هادئ أكثر من اللازم ، دائما صـــامت ليس بينى وبينه حوار من أى نوع ، يمكنك أن تصفيه بأنه لا لون له ولا رائحة .

- إذن أعيدى الكرَّة واطلبى الطلاق .

- لن يكون الأمر بهذه السهولة ، أنت نفسك تعرفين ما حدث لى من قبل .

- الوضع الآن تغير بعد أن أتى لك بضرة ، هذا حق مشروع لكِ الآن

- من قال ان كل من له حق يأخذه ؟

ـــ حاولى إقناع صابر بحوار هادئ ربما يتفهم رغبتك ويطلقك هو من نفسه بعد أن صارت له زوجة أخري وخاصة أنك تقولين انهما متوافقان معا ، إذن لاداعى لبقائك معه وخصوصا أنه ليس بينكم أولاد .

- أنا أشك في شيء لو تأكد لى ربما حلت مشكلتى .

- فيما تشكين ..؟

- أشك أن وردة حامل .

- وردة حامل ..؟

- لست متأكدة بعد .

- ماالذى دفعك لهذا الظن ..؟

- إنه الغثيان والدوخة لاحظت هذا عندما كانت تزورنى بالأمس .

- وهل أخبرتْ صابر؟

- لا أعرف ، لكن لو كانت قد أخبرته كنتُ سـألحظ ، سـتكون فرحته كبيرة بعد أن كاد يفقد الأمل فى أن يكون أبا من زوجتين سابقتين .

- أستكونين سعيدة لأجله ؟

ولم لا ...؟

- هذه سعاد التي أعرفها.

***



ما إن فتحت حياة الباب عائدة من عملها حتى فوجئت بحامد الذى عاد مبكرا من عمله هذا اليوم جالسا فى الصالة يشاهد التلفاز .

ألقت عليه السلام ، استبدلت ملابسها مسرعة وذهبت إلى المطبخ لتحضير طعام الغذاء فدخل خلفها على غير عادته محادثا إياها ثانية بشأن تقديمها طلب الإجازة فهو لايرغب فى عملها ويود أن يجدها بالبيت كلما خرج منه أو عاد إليه .

صمتت حينا تفكر فهي لاتستطيع الرفض ولا تريد القبول .

طلبت إليه أن يمهلها بعض الوقت حتى ينتهي العام الدراسى على الأقل لتحصل على مكافأة الامتحانات فلم يهتم بما تقول ومضى منصرفا.

تناول الجميع طعام الغداء ، دخلت الفتاتان إلى غرفتهما ودخل هو إلى غرفة النوم لأخذ قيلولته التى يحرص عليها دائما بينما ظلت هى جالسة فى الصالة بعدما انتهت من بعض أعمالها تفكر فيما يجب عليها أن تفعل .

هل تحاول ثانية إثناءه عن قراره بالتودد والاستعطاف الذى كان يصل بها أحيانا إلى حد التذلل ؟

وإلى متى ستظل رهن قرارته المفاجئة ؟ لقد سئمت كل هذا ولكن ما البديل لديها ؟

هل تثور ؟ تغضب ؟ تعترض ، تأخذ موقفا ... ؟

وماذا بعد ؟

تعرف يقينا أن إرادته التى ظلت تتغذى وتستفحل على حساب إرادتها ستنتصر فى النهاية لذا من الأفضل لها أن تكون كما يريد الجميع منها زوجة مطيعة وعاقلة .

يجب عليها إذن ترك العمل وتجنب الدخول فى مباراة ستخرج منها حتما منهكة ومهزومة وربما تطور الأمر إلى كدمة زرقاء بإحدى عينيها .

عندما أخبرت سعاد برغبته تلك أ سفت لذلك وطلبت منها محاولة إثنائه .. لكنها أجابتها قائلة :

ـ إن حامد إذا أراد شيئا فإنه ينفذه .

تذهب إلى مكتب المدير الذى ما إن تقترب منه حتى يعانقها عبيره ويعاود قلبها الخفقان لاتدرى إن كان ابتعادها عنه وعدم تمكنها من رؤيته سيساعدها على التخلص من تلك الرجفة التى تنتابها كلما رأته أم أن هذا البعد سيؤجج مشاعرها أكثر ؟

تقدم له الطلب وتســتأذنه فى التوقيع لها متحاشــية النظر اليه وكأنما تُعد اختبارا صغيرا لنفسها ترى إن كانت سيمكنها الاعتياد فيما بعد على عدم رؤيته .

تناول منها الطلب مبديا أســفه معبرا عن كونها ســتنقطع عن العمل مؤكدا لها أن تلك خسارة كبيرة لتلاميذها وللمدرسة أيضا .

فيما استطاعت أن تقاوم رغبتها فى النظر إليه لم تستطع أن تمنع صوته وكلماته الرقيقة من الانســياب على ســمعها ومداعبة قلبها الذى ظل يخفق رغما عنها ضاربا ـ هو الآخر ـ بإرادتها عرض الحائط .



ما عادت تحتمل يد حامد تعبث فى جســدها عندما يرغب فى إيقاظ ذكورته الغافية .. ماعادت تحتمل أنفاســه اللاهثة وعرقه المتصــبب منه على جســدها ، كثيرا ما كانت تشـعر بالغثيان فتذهب مسـرعة إلى الحمام تقذف مابجوفها بعدما يقذف هو فى أحشائها ليسألها إن كانت حاملا ..وهولا يدرى أنها حملت منذ سنى عمرها الأولي معه جنينا لم تلده بعد ، جنينا صار أكبر من أن يضمه رحم امرأة ، جنينا يصارع من أجل الخروج ليعلن عن وجوده .

لا يدري بأنها تحمل فوق رأســها ثقلا أمســت تنوء به خاصــة بعد أن أجبرها على ترك العمل الذى كان متنفســا لها لتنقض عليها الكوابيس كوحوش كاسرة عرفت الطريق إليها فى كل ليلة ، تنشب فيها مخالبها .

تنام فترى نفســها تمضــى فى شــارع مظلم وموحش فإذا بها تسـقط فى وهدة عميقة مليئة بماء راكد كريه الرائحة تحاول جاهدة الخلاص ، تمد ذراعيها تبحث عن أى شــيء يمكنها أن تتشــبث به لكن الأرض زلقة وموحلة وإذا بشخص هيئ لها أنه أحمد .. تناديه «خذ بيدى » فلا يلتفت لها ، تعاود النداء .. خذ بيدى .. أنا هنا .. أنا حياة .. ، يتجاوزها متابعا سيره دون أن يرها ، تعاود الصراخ .. أنا هنا .. أنا حياة ..أنا حياة .

يستيقظ حامد غير مندهش لأمر قد اعتاده متأففا ضجرا وتستيقظ هى وما زال إحساس البلل والانزلاق يلازماها ، تتحسس جسدها لتتأكد أنها بالفعل دافئة فى فراشها .

أمسى «حامد» منزعجا مما صار يتكرر منها كل ليلة وما إن لاحظت انزعاجه و تأففه حتى اســتأذنته فى النوم منفردة عنه حتى لاتزعجه بفزعها الليلى المتكرر .

تقضــى أول ليلة لها منفردة عنه ، فمنذ أن تركت منزل والدها لم يحدث أن تنفست بالليل هواء غير الذى يتنفسه ..

فى تلك الليلة تراءت لها لمحات من حياتها معه تلك التى امتدت إلى إحدى عشرة سنة ، تري أمامها عروسا جميلة رشيقة ، ترتدى الفستان الأبيض والترحة التلى المزدانة بخيوط فضية براقة نسجت على شكل زهرات صــغيرة تناثرت عليها ، تعبر باب شــقتها بالقدم اليمنى كما طُلب منها .

خطتْ إلى بيته كهالة من نور أغراه فأعمل فيها ســيفه فظلت تنزف نورها حتى اســتحالت تلك الهالة إلى ثقب أســود ابتلع إحســاســها بالسعادة .

تتساءل : أما كان له أن يحتوى ذلك النور ؟

لم يكن الأمر يتطلب أكثر من لمسة حانية وقلب محب ..

ولكن أكان عليه أن يرهق نفسه باستجداء الرضا ممن يعتقد أنها ملك له بالفعل ؟

تتذكر حياتها معه و كيف كانت جافة و قاحلة ، تتذكر كم كان حادا و متســلطا فى أتفه الأشــياء وكم كان عنيفًا حتى في اللحظات التي من المفترض به أن يكون أكثر حميمة فيها وتوددا تتذكر كل هذا وتقول فى نفسها :

.. لقد وأد إرادتى وأهال فوقها التراب ووطأها بقدميه الكبيرتين بقوة اســتمدها من كونه رجلا .. قوة توارثها أبٌ عن جد وأُورثتنيها أنا أمٌ عن جدة عبر مئات وربما آلاف السنين .

لكن لامزيد الآن يا حامد ..

فها هو قلبى ينبض ، مازلت أتحدث حتى لو كان هذا الحديث مع نفسى ، مازلت أصرخ حتى لو كان هذا الصراخ فى أحلامى ، سأحاول النهوض من تلك الوهدة الموحلة ، سأزحف جاهدة لأصل إلى النهر المتدفق الذى يتراءى لى على بعد إرادة منى ، ســأرى وجهى وعينىّ وأنفى وفمى ، لن تطمس معالمى بعد الآن ،

لن تقتحم جسدى بعد اليوم بتلك الطريقة الغبية ، سأقول لا لما لا أريد ، حتى لو كان ما لا أريده هو أنت وستُذهل من المفاجأة عندما تكتشف أن إرادتى التى ظننت أن لا وجود لها مازالت على قيد الحياة .

ظلت تتهرب منه وتختلق له الأعذار كلما طلب منها اللحاق به فى غرفة نومه حتى ضــاق بإعراضــها وذكرها بأن هذا يوغر صـــدره وحذرها بأن صبره كاد أن ينفد

لكنها لم تكترث وظلت على إعراضها عنه .

حتى ذلك اليوم الذى لم يذهب فيه إلى العمل وظل فى البيت فى حين ذهبت الفتاتان إلى مدرســتيهما ، دخل إليها مبديا رغبته فى مواقعتها ، لم تتذرع تلك المرة بحجج طالما كانت تتذرع بها من قبل وإنما قالت له :

ـ لا أريد .

وهمت بالخروج ، إســتبقها ، أغلق الباب مســرعا ثم دفعها بقوة نحو السرير قائلا :

ــــ ماذا تظنين أنك فاعلة ؟ أنت زوجتى ولى عليك كل الحق وسأحصل على حقى منك متى شئتُ وأنَّى شئتُ .

– منذ متى وأنت تنتظر إقبالى عليك ورغبتى فيك ؟

ضحك ساخرا ..

– رغبتك !

يعاود ضحكته الساخرة ويضرب كفا بكف :

ـ لست أدرى أى نوع من النساء أنت ؟ أنا أشعر أنى أعاشر قطعة ثلج .

ــ أتظن أن إهانتك لى ستحولنى من قطعة ثلج إلى إنسانة من لحم ودم ؟

– ماذا دهاك يابنت الناس ، لسـت حياة التى أعرفها ، لابد أنها تلك الملعونة قد حرضـتك على التمرد ، لقد أخطأت حين سـمحت لك بزيارتها والابقاء على صداقتها .

– لادخل لسعاد فيما بيننا .

ـ اسمعينى جيدا ، علاقتك بتلك المتبجحة قد انتهت من تلك اللحظة ، أقسم أنى لو علمت أنك التقيت بها ولو بالصدفة أو هاتفتها سيكون لى معك شأن آخر.

– أنا لم أخترك زوجا ولم أختر أى شـيء فى حياتى سـواها ولن أتنازل عن صداقتها أبدا مهما حدث .

وهنا انهال على وجهها صـفعا وهى تحاول أن تخبئ وجهها بيديها فكانت الصفعات تنهال على رأسها تارة وعلى أذنها تارة ، كان يضرب بكلتا يديه بكل قوته ثم تركها وانصرف .

كانت تلك هى المرة الأولى التى تتصـدى فيها حياة لإرادة حامد وتعصى له أمرا بشكل مباشر ، كما كانت أيضا هى المرة الأولى التى يضـربها فيها بتلك القسـوة حتى أن أصـابع كفه الغليظ تركت أثرا واضحا على وجهها وألما شديدا فى أذنها اليسري وصداعا برأسها .

كانت تجفف دمعها بيد وتضـع اليد الأخرى على رأسـها حينا وعلى أذنها حينا .

لم تكن تفكر فى شيء سوى الخلاص .

ولكن كيف وهى تعلم أن أباها وإن تأذى لمشهد وجهها فإنه فى النهاية سيعيدها إليه مع بعض التوصيات بطاعة الزوج التى هى من طاعة الرب ولن يرى فى هذا عيبا أو نقيصة ، كيف لا وهو الذى لم يكف عن ضرب أمها حتى صارت جدة !

إذن فترك البيت ليس حلا .

تعود البنتان من مدرستيهما تلاحظان آثار الضرب على وجه أمهما وتتساءلان عن عما سبب لها هذا لتخبرهما أنها « اصطدمت بالحائط» .

ضمتهما إلى صدرها محاولة السيطرة على دموعها ..

بعد حين عاد من الخارج عابس الوجه ، معقود الحاجبين ، ينظر لها شزرا كأنما يتوعدها بالمزيد ..

تناول هو والفتاتان الطعام ، أما هى فاكتفت بجرعة ماء .

وما إن خرج لبعض شأنه ودخلت البنتان إلى غرفتهما حتى نهضت لمهاتفة سعاد التى ما إن سمعت صوتها عبر الهاتف حتى انفجرت بالبكاء .

حاولت سعاد تهدئتها حتى تستطيع أن تفهم ما تقول :

حكت لها ماحدث منه وكيف أنه انهال عليها ضربا وأنها لا تعرف ماذا تفعل ولا أين ستذهب ؟

حاولت سعاد تهدئتها وامتصاص غضبها قدر استطاعتها موصية إياها بالصبر والتحمل وأن تتروى وتفكر بهدوء قبل اتخاذ أى قرار .

انتهت المكالمة وقد هدأت نفس حياة بعض الشيء فيما ثارت نفس سعاد لما لحق بـ صديقتها ، متعجبة من أمر هذا الزوج الذى يـ ضرب زوجته ليرغمها على الرضوخ لرغبته فى مواقعتها .

تنظر إلى يدها حيث كان موضع الجبيرة وتقول :

ـ أى قهر هذا وأى حياة تلك ؟

بينما هى كذلك إذ دخل عليها صابر فرحا متهلل الوجه قائلا :

ـ وردة حامل يا سعاد .. وردة حامل ..

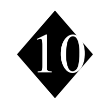
فتجيبه دون أن تلتفت إليه « مبروك » .

يلاحظ عدم اهتمامها :

ـــــ كنت أتوقع منكِ هذا ، هى فى النهاية ضـــرتك التى ســتأتى لى بالولد .

لم تهتم ســعاد بما قاله صـــابر فقد كانت ما تزال متأثرة بما حدث لصديقتها والذى بالطبع ذكرها بما حدث لها من قبل .

***



ذهب صابر لقضاء تلك الليلة عند وردة التى صارت أحق بالحب والرعاية فاستأذن سعاد التى وافقت من فورها لتظل ساهرة لا يواتيها النوم تجالسها أفكارها عن تلك العصا الغليظة التى تعلو رأسها ورأس مثيلاتها طول الوقت وهل يمكن لامرأة مثل حياة تحطيم تلك العصا أم أن تلك العصا هى القادرة على تحطيم رأسها .

كانت مازالت جالسة شاردة فى أفكارها حين دخل عليها صابر عائدا ، لن يقض الليلة عند وردة كما سبق وأخبر سعاد ، سألته عن سبب عدوله عن رأيه فأخبرها بأن وردة أصرت بل وأقسمت على عودته وأكدت أنها لن ترضى إلا بإقامة العدل ثم أردف :

ـــ أليست طيبة القلب وتحبكِ أنتِ التى لم تفكرى أن تباركى لها حملها ؟

لم تعقب سعاد على تلميحاته وذهبت لتنام .

عندما استيقظت فى الصباح صعدت كعادتها تسقى زرعها الذي امتلات به جنبات سطح البيت لتجد أحد أصصها الفخارية المزروعة بشجيرة ورد قد كُسرت ودُهست الوردة التى كانت قد بدأت تفتح قبل أيام ، يبدو أن قدم أحدهم قد دهستها

وحين حاولت تفحص المكان لاحظت أثر حذاء ساعدها على رؤيته الطين الذى علق به من الآنية المكسورة .

اندهشت كثيرا كيف انكسرت تلك الآنية ؟ وأى قدم تلك التى دهستها ؟ لا صابر ولا وردة يصعدان إلى السطح ولا يهتمان أبدا بالزرع !

هبطت درجات السلم بعد أن سقت نباتاتها ثم ما لبثت أن سألت صابر إن كان قد صعد إلى أعلى السطح ؟ فأجابها بالنفى .

تناولت معه الفطور ثم ذهب لصلاة الجمعة وذهبت هى إلى وردة تبارك لها الحمل وتشكرها عن حسن صنيعها ليلة الأمس ..

طرقت باب شقتها المجاور تماما لباب شقة سعاد ، تفتح لها وردة الباب تفرك عينيها اللتين مازال يبدو عليهما أثر النوم ...

- صباح الخير ياوردة .

تتثاءب قائلة :

- صباح الخير يا سعاد ، تفضلى .

- أما زلت نائمة حتى هذا الوقت ..؟

- كنت أشاهد فيلما ونمت متأخرة .

ـ يبدو أنه كان فيلما شيقا ليجعلك تسهرين هكذا .

ـ كان شيقا بالفعل .

– جئت أبارك لك الحمل .

– عقبالك .

– أشكرك .

– سيكون المولود ابننا معا .

– إن شاء الله ، فقط انتبهى لنفسك .

– كنت أظن أنك غاضبة منى .

– أنا ! لماذا ؟

– لأنك لم تعودى تهديننى زهورك كالمعتاد .

– كنت سأسألك إن كنت قد صعدتِ إلى سطح البيت بالأمس ؟

ـ لا .. لم أصعد إليه ، لماذا تسألين ؟

لم تشأ سعاد أن تخبرها بشأن الآنية التى كُسرت والزهرة التى دُهست وإنما احتفظت لنفسها بالشك الذى بدأ يتسرب إلى تفكيرها عن ماهية هذا الذى تسلل إلى سطح البيت ولماذا .

قاطعت وردة شرودها :

ما أخبار صديقتك حياة .. ؟

- بخير .

- لماذا لم تعد تأتى لزيارتنا ..؟

- تركت العمل ولزمت البيت ..

- أبلغيها سلامى إن رأيتها ..

- إن شاء الله .. أستاذنك الانصراف .

عادت سعاد إلى شقتها وما زال يشغلها التفكير فيمن يكون هذا الذى تسلل إلى سطح المنزل ..

بالطبع لن يكون قد تسلل ليسرق زهرة .. لم تفقد أيا منها سوى تلك التى دُهست وكأن من دهسها ما كان يبصرها لأنه كان يمكنه أن يتفاداها إلا أن ... ؟

أيكون التسلل هذا قد حدث فى الظلام ؟

كان هناك خيط من الشك بدأ يتسرب إلى نفس سعاد لتقول محدثة نفسها :

ـ حذار من شيطانك يا سعاد ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

كانت قد قالتها بصوت قد سمعه صابر الذى عاد لتوه من صلاة الجمعة فسألها ... لماذا تستعيذين بالله ، أرأيت شيطانا ...؟

انتبهت على سؤاله الذى بدا من نبرة صوته وكأنه يعنى نفسه .

قضى صابر ليلته التالية عند وردة وعندما جاء موعد ليلة سعاد أبت عليه إلا أن يقضيها مع وردة فا ستجاب لها وذهب إلى وردة التى أبت هى الأخرى وأقسمت عليه أن يعطى سعاد حقها وأن يعدل بينهما وأقسمت أنها لن تقبل بغير هذا فعاد إلى سعاد التى التزمت الصمت ونامت بعيون مغمضة وأُذن منصتة لأى صوت قد تسمعه ليلا ، لم يكن هناك ما يشوش على صمت الليل المطبق على شوارع القرية سوى صوت نباح كلب وغطيط صابر .

مرَّ الوقت واستسلمت سعاد للنوم ربما قبيل الفجر دون أن يسترعى انتباهها شيء .

تعاود الكرة فى الليلة التالية دون أن تسمع شيئا غير معتاد لتظن أنها أولت الأمر أهمية لايستحقها .

« إن بعض الظن إثم » هكذا قالت محاولة إقناع نفسها أن لا شيء يحدث وأنها ربما هى من دهست الوردة دون أن تراها ، ولكن هل كسرت الآنية أيضا دون أن تراها !

تعاود الا ستعاذة من الشيطان هامسة فى تلك المرة حتى لايسمعها صابر الذى أتى لتوه من عند وردة ليقضى الليلة مع سعاد كما هو العدل الذى أقسمت وردة على إجرائه فيما بينهما .

ينام صـابر وبعد دقائق يغط فى نومه كعادته بينما ظلت سـعاد سـاهرة تشـاهد التلفاز ، تبحث بين القنوات عن شـئ تشـاهده لتجد فيلما عربيا (الحرام) والذى سـبق وأن شـاهدته من قبل لكنه كان قد ترك أثرا كبيرا فى نفسـها لدرجة أن عينيها قد دمعتا تعاطفا مع تلك المرأة بطلة الفيلم التى تعانى الفقر والحرمان ، الفقر لكل شـيء والحرمان من كل شئ ،

امرأة يدفعها الجوع وقلة ذات اليد إلى أحد الحقول لتبحث عن شيء يقتات به زوجها المريض الواهن ، تحفر بكلتا يديها فى طمى الأرض الجاف تبحث عن « جذر بطاطا » لتفاجأ بصاحب الحقل وقد أمسك بها تسـرق من حقله فما كان منه إلا أن شـمرعن سـاعديه القويين وأخذ يحفر بفأسـه الأرض بقوة حتى صـنع وهدة أخرج منها ملء حجرها من جذور البطاطا و ما ان انحنت أمامه لتجمع تلك الجذورحتى طرحها ظهرا فى تلك الوهدة التى أعمل فيها فأسـا حديديا منذ قليل ليعمل فيها هى فأسـا من نوع آخر قاذفا بذرته فى رحمها لتنمو جنينا فى أحشائها ، تحمله بعيدا ، تتوارى به تحت ظلال شجرة جميز من شبح عار ومن قيظ نار تلفحها هى ووليدها الذى ما ان استهل صارخا من رحمها حتى أخافتها صـرخاته أن تصـل إلى سـمع أحدهم وبدون أن تشعر كممت فمه براحة يدها لتكتشف من فورها أنها خنقت وليدها بيدها .

للمرة الثانية تفيض عيناها دمعا وهى تشـاهد حال تلك البائسـة التى أضـاعها الفقروالحرمان بعد أن قيدها الضـعف هناك فى ذلك الحقل وتلك الوهدة التى ا ستسلمت فيها لقوة ذلك الرجل صاحب الحقل ولضعفها كأنثى أرهقها الجوع والحرمان ..

انتهى الفيلم بعدما انتصف الليل ، آوت الى فرا شها محاولة ا ستجداء النوم بلا فائدة أخذت تتمتم ببعض آيات القرآن ربما يسـاعدها ذلك على الا ستغراق فى النوم وبينما هى كذلك إذ ترامى إلى سمعها صوت بدا لها كأنه وقع أقدام تخطو ببطء على سطح البيت ، يقترب الصوت شيئا فشيئا ، يهيأ لها أن أحدهم يهبط درجات السلم ،

تسللت بهدوء متجهة الى باب شقتها محاولة الإنصات لمصدر الصوت فإذا بصرير أحدثه باب شقة وردة وكأنما قد فتح برفق وأغلق .

ذهلت سعاد :

يا إلهى ماذا أفعل .. كيف أتصرف ..؟

سأطرق بابها وأدخل إليها و..

لا .. سأنتظر حتى يصعد ثانية .

لا لا .. لن أقبل بهذا يحدث .

لكن كيف أتأكد أن هناك أحد معها فى شـقتها ، ألا يمكن أن تكون وردة نفسها هى التى صعدت إلى السطح وعادت إلى شقتها ؟

لكن ماالذى يجعلها تصعد إليه فى هذا الوقت المتأخر ؟
ربما كانت تقطف بعض أوراق النعناع لمغص ألمً بها .
وربما لا ..
يجب أن أتأكد وأخرج من دوامة الشك ، سأذهب إليها ..
لكن ماذا سأقول لها ..؟
سأطلب منها قرصا مسكنا للألم ،
فتحت باب شقتها وأغلقته خلفها بهدوء ، تذكرت أنها نسيت المفتاح بالداخل .
ياللكارثة .. ماذا سأفعل الآن ؟ صمتت لحظة تفكر ..

كارثة ؟ ليســت كارثة إنها فكرة عبقرية لم تكن تخطر على بالى ، بهذه الطريقة يمكننى الدخول والبقاء عندها لبعض الوقت حتى أتأكد تماما ، ما على سوى أن أطرق الباب ..

تطرق الباب عدة طرقات ، تتســارع دقات قلبها ، عدة طرقات أخرى لكن الباب لم يفتح .. عادت بطرقات متتالية أكثر قوة وقد تأكد لها أن أحدا ما بالداخل فلو كانت وردة من دخلت شــقتها للتو فمعنى هذا أنها مازالت مســتيقظة ولكانت قد فتحت لها الباب بمجرد الطرقات الأولى .

كلما طال انتظارها زاد إصـرارها على الدخول وصـارت طرقاتها أكثر قوة ، ظلت تطرق الباب حتى سمعت وردة تسأل فى صوت خافت :

ـ من ..؟

– أنا سعاد .. افتحى

ـ سعاد ! ماذا تريدين ؟

ـ أريد منك شيئا .. افتحى الباب .

فتحت وردة الباب بحيث جعلته مواربا :

ـ خير يا سعاد ؟

– أريد قرصا مسكنا للألم .

– انتظرى لحظة سأحضره لك .

دخلت وردة وتركت الباب مواربا ولم تدعها للدخول ، فدخلت سعاد خلفها خطت عدة خطوات إلى الصـــالة ، كانت الإضــاءة خافتة ، نظرت باتجاه غرفة النوم كان الباب مغلقا ثم ما لبثت وردة أن فتحته وخرجت منه وأغلقته خلفها وعادت بيدها شـريط دواء ، تناولتها سعاد منها و شكرتها وهمت تخطو باتجاه باب الشقة ثم توقفت فجأة وضربت على صدرها براحة يدها وشهقت :

- نسيت المفتاح بالداخل .. !

اضطربت وردة قليلا ثم قالت :

- صابر سيفتح لك ..

- صـــابر ينام كالمغشـــى عليه ، لن يســـتيقظ بســـهولة ، قد يســـتيقظ الجيران قبله .

وردة وقد بدا عليها الاضطراب أكثر..

ـ وما العمل الآن ؟

لاحظت سعاد توترها فعاجلتها قائلة وقد أشارت إلى أقراص المسكن فى يدها :

ـ ممكن كوب ماء ؟

ذهبت وردة لإحضار الماء من المطبخ وبينما هى بالداخل إذ سمعت سعاد تقول لها :

- أشعر بألم شديد ، استأذنك فى أن أستريح قليلا فى فراشك ..

خرجت وردة مسرعة من المطبخ متجهة إلى غرفة النوم ، كانت سعاد قد ســـبقتها إليها لترى شـــكها وقد تحول إلى يقين ماثل أمام عينيها حيث هشام جارهم الشاب طالب الجامعة قد وقف منكمشا بجوار السرير مرتديا فقط سرواله الداخلي

وقد أمسك بنطاله فى يده ، يبدو أنه كان يهم بإرتدائه ، صُعقت سعاد بما رأت ، تسمَّر الثلاثة فى أماكنهم ، وردة على الباب وسعاد بالداخل والشاب قد تراجع إلى الخلف حتى التصق ظهره بالحائط وقد تدلى البنطال من يده .

مرت لحظات دون أن ينطق أو يتحرك أحدهم من مكانه ، حتى استجمعت وردة أنفاسها لتقول بصوت منكسر ومتقطع :

ـ أرجوك يا سعاد لاتفضحينى ، أتوسل إليك .

اقتربت منها تحاول تقبيل يدها ، تراجعت سعاد للخلف وقد وجهت نظرة إلى الشاب مشيرة إليه بالخروج ، ارتدى بنطاله مسرعا فيما حمل قميصه وحذاءه فى يده وخرج مهرولا .

أخذت وردة فى البكاء بين يدى سعاد تشكرها وتقسم لها أنها لن تفعل هذا ثانية .

خرجت سعاد من عندها متجهة إلى باب شقتها الذى كانت تدقه بكلتا يديها حتى يستيقظ صابر ، وبينما هى تدق الباب بقوة محدثة جلبة كان قلب وردة يرتجف حتى كاد أن يتوقف خشية أن تخبرزوجها بما رأت ، فتح صابر الباب وهو يفرك عينيه براحته متعجبا ومتسائلا :

ـ سعاد ..! أين كنت ؟

كانت وردة قد ألصقت أذنها على باب شقتها وقد حبست أنفاسها خوفا مما قد تقوله سعاد لزوجها وما إن سمعتها تقول كنت عند وردة أسألها على قرص مسكن للألم حتى أخذت نفسا عميقا .

كان صابر قد عاد إلى سريره قبل أن تكمل سعاد جملتها ، ولم تمض دقائق حتى عاد يغط فى نومه .

لم تنم سعاد تلك الليلة ، ولم تنم وردة أيضا فقد كانت تخشى أن تغير سعاد موقفها وتخبر صابر بالحقيقة ، لكنها كانت تحاول تهدئة نفسها قائلة :

ـــ لو أخبرته سأنكر .. ليس لديها إثبات ، هى فى النهاية ضرتى ، سيصدق الجميع أنها تغار منى وتكيد لى ..

ظلت تنتظر حتى الصباح تتساءل كيف سيكون وجه زوجها عندما يأتى ؟ أيكون مبتسما ؟ عابسا ؟ ثائرا ؟ لم أره من قبل ثائرا ..

ماذا لو أخبرته هل يطلقنى ؟ ... يقتلنى ؟

يمر الليل عليهما طويلا بطيئا كأفعى ملساء تزحف على حائط رخامى قد صقل بحرفية فكأنها لاتبرح وكأنه لايمر .

صابر لم ير تلك الأفعى ولذا فهو يغط فى نومه بينما سعاد شاردة غارقة فى تساؤلاتها :

ـ أيكون حملها من ذلك الشاب أم يكون من صابر ؟

وكيف لى أن أعرف .. وإذا عرفت ماذا يمكننى أن أفعل ؟

لايمكن أن أصمت ، تلك جريمة .. يجب أن أخبره ..

لا ، لن أخبره ستكون صدمة كبيرة له قد لايتحملها ، وكذلك سأفضح وردة وربما لو علم فإنه قد يقتل هـ ااا ...! يقتلها .. ياإلهى ماذا أفعل ..؟

ليتنى لم أدر .. كنت أريد أن أستريح من الشك ، وها أنا قد استرحت من الشك لتتملكنى الحيرة .

استيقظ صابر فى الصباح ليجدها جالسة وقد بدا عليها أثر السهر والإرهاق ..

فسألها إن كانت مازالت تتألم ؟

فأجابته بأنها بالفعل مازالت تعانى من الألم ، عرض عليها إن كانت تود الذهاب للطبيب لكنها رفضت قائلة :

ـ أنا أعرف سبب الألم وسأعرف كيف أعالجه.

قامت تجر خطاها لتحضير طعام الإفطار له لكنه أشفق عليها واستأذنها فى تناول فطوره مع وردة التى وجدها جالسة هى الأخرى وقد بدا على وجهها نفس ماقد بدا على وجه سعاد من علامات السهر والإجهاد ..

هبت واقفة و قد اكفهر وجهها لمجرد رؤيته ، تتأمله تحاول أن تتفحص وجهه الذى بدا هادئا وهو يســألها عما بها وأنها يبدو عليها هى الأخرى أنها لم تنم مثل سعاد ؟

قالت وقد أطمأنت قليلا :

ـ كيف حالها الآن ..؟

– أظن أنها مازالت تتألم .. ومع ذلك رفضت الذهاب للطبيب .

– ستكون بخير لاتقلق عليها ، أنا سأبقى معها لن أتركها إن احتاجت أى شيء

ينظر لها ممتنا ويقول :

ـ أنت طيبة القلب ياوردة وهى أيضا ، أنا أحسد نفسى عليكما .

تأكدت أن سعاد لم تخبره وقالت فى نفسها كم هى طيبة بالفعل ولكن ..

ألا يمكن أن تعدل عن رأيها ..؟

لا لا ...لو كانت تريد كشــف ســرى لفعلت ذلك بالأمس وهشــام موجود معى فى الشقة .

ربما خافت أنها لو حاولت إيقاظ صابر أن تتعرض للأذى .

لكنها بالفعل كانت ودودة معى منذ أول يوم .

أتراها ستقبل بهذا وتلتزم الصمت ..؟ لابد وأنها تشك الآن فى أمر الحمل ولابد أنها ستتساءل عمن يكون والد الجنين ..

لماذا الخوف ؟ هى الآن لاتملك لك شيئا ..وإن حدث وتفوهت بكلمة ما عليك سوى أن تقسمى على كذبها ...

انتبهت من شرودها على نداء صابر لها يطلب منها إعداد الفطور بينما خرج من الحمام ودخل إلى غرفة النوم .

بعد أن انتهى من ارتداء ملابسه ، انحنى إلى درج صغير خصص لجواربه وأثناء ذلك لمح على الأرض ميدالية على حرف H تضم مجموعة مفاتيح ومدية صغيرة ، أخذ يتأمل الميدالية التي بدا له أنه قد رآها من قبل، حاول أن يتذكر مع من لكنه لم يستطع .

لا أحد يزور وردة وحتى لو زارها أحد فما الذى سيأتى بميداليته إلى غرفة النوم .

هم بأن يناديها ويسألها لكنه تردد .

دسَها فى جيبه، تناول فطوره وذهب إلى مقر عمله بمصلحة الشهر العقارى .

مرت ســاعات العمل والســؤال ما زال يتردد فى ذهنه ، عمن يكون صاحب تلك الميدالية ؟ ولماذا لم تنم سعاد ولا وردة فى تلك الليلة ؟

بدأ يتذكر بعض الأ شياء المريبة التى ماكان يلقى لها بالا من قبل ، أ شياء تافهة لكنه ما إن يربطها بمكان وجود الميدالية فإنها لاتكون كذلك ، يتذكر أيضا أنه أحيانا كان يشتم رائحة عطر ليس له ولا لها وكانت عندما يسألها تؤكد له أنه فقط يهيئ إليه ، كان يصدقها ويكذب أنفه ..

يحاول أن يسترجع تفاصيل ما مر عليه حتى عاد إلى بيته .

طرق باب شقة وردة فتحت له سألها عن أحوالها وأحوال سعاد وإن كانت قد إطمأنت عليها أم لا ؟

ثم صمت لحظة ونظر إليها يسألها وقد تغيرت نبرة صوته ..

- ألم يزرك أحد بالأمس ..؟

اضطربت وتسارعت دقات قلبها :

- لا ... لم يزرنى أحد .

- ولا أول أمس ..؟

- ومن سيزورنى ..؟

- ربما صديقة لك أو إحدى جاراتك.

- لا علاقة لى بأى من الجيران.

- لهذا أود أن تكوًنى علاقات صداقة مع الجيران .

وردة وقد حاولت إخفاء توترها خاصــة بعدما كرر ذكر كلمة الجيران :

- أحب أن أكون فى حالى .

- صار لك هنا عام ونصف ولم أر أحدا يدخل أو يخرج من عندك.

- أحد مثل من؟

- أى أحد المهم أن تجدى من يؤنسك أثناء غيابى .

- أكتفى بمشاهدة التلفزيون.

انتهى الحوار وساد الصمت بعض الوقت .

وردة تخشى أن تكون سعاد قد ألمحت له بشئ .

ولكن متى حدث ذلك لقد خرج من عندى إلى العمل وعاد منه إلى شقتى مباشرة فمتى تحدثت إليه ؟

لابد أنها مجرد أسئلة عادية ولا يقصد من ورائها شيئا..

لكن نبرة صوته ونظرة عينيه تقول غير هذا .

آه لو أعرف فيما تفكريا صابر ...

سعاد أيضا جالسة تتجاذبها الأفكار تقول لنفسها ..

لا يمكن السكوت عن جريمة الله وحده يعلم كم مرة قد ارتكبت وكم من الممكن أن ترتكب إذا التزمت الصمت ، ولكن ماذا أفعل ؟

لابد أن أجد حلا يريح ضميرى ولا يؤذى أحدا ..

ظلت تفكر وأخيرا هداها تفكيرها إلى حل مؤقت رأت أنه على الأقل قد يمنع تكرار ماحدث.

دخل صابر ليطمئن عليها فطمأنته :

- أنا بخير .. فقط أريد منك شيئا .

- أى شئ ..؟

- قد يبدو لك أنه طلب غريب.

- تكلمى يا سعاد .

- أريد أن تأتى بكلب حراسة.

- كلب !

- نعم كلب.

- لماذا ..؟

- الكلب يؤمن البيت ويحميه من اللصوص.

- لصوص ماذا ...؟

- أى لصوص .. أحضره لى فقط .

يصمت برهة يفكر :

آه ... أيها الغبى المغفل ، ألم تفهم بعد؟

الأمور بدأت تتضح الآن .. سعاد دخلت شقة وردة بالأمس تسألها عن قرص مسكن .. ولم تنم طيلة الليل .. لماذا ؟

وإن كان الألم قد أبقاها متيقظة .. فما الذى أبقى وردة أيضـــا متيقظة طوال الليل ..

ثم هى الآن تطلب إحضار كلب حراسة .. لابد أنها رأت شيئا ولم تشأ إخبارى ...

ثم هذه الميدالية .. يجب أن أتأكد أولا ، لكن لماذا طلبت ســعاد إحضار الكلب فى هذا الوقت بالتحديد ؟

يخرج من شروده ليسألها عن ذلك فتجيبه :

– أهو تحقيق .. ؟ هذه أول مرة أطلب منك شيئا و ستكون آخر مرة .

– لست أقصد إغضابك ولكن أريد أن أعرف السبب فقط .

ـ خشيت أن يكون هناك من يتسلل إلى السطح ويسرق أزهارى .

وهنا اتضحت الأمور أكثر .. لكن من عساه يكون ..؟

لابد أنه أحد الجيران وأن اسمه يبدأ بحرف الحاء أو الهاء .. يسترجع أسماء جيرانه الملاصقة أسطحهم لسطح بيته..

من الناحية الشـرقية منزل سـعد أمين .. هذا رجل مسـن يعيش مع زوجته وابنته الأرملة وطفليها ..

من الناحية الغربية الحاجة أم موافى وحفيدها .. «هـــشاااام» إنه هو ذلك المنحل وإنها ميداليته .. لاأحد غيره .. الخائنة ، سـأقتلها ، سأقطعها إربا هى وذلك الكلب .

لكن مهلا ، هذه الأمور لاتؤخذ بالظن يجب أن أتأكد أولا ، لكن كيف ؟

لابد أن سعاد تعرف شيئا ..

كانت سعاد قد أحست بما يعتمل فى قلبه فسألته :

- ما بك اليوم أهناك ما يضايقك فى العمل ..؟

- لاشيء فقط أشعر بصداع فى رأسى .

- سلامتك .. أحضر لك قرص أسبرين ..؟

- لا أظنه سيجدى نفعا ، يصمت حينا ثم يسألها :

- أما زلت تريدين إحضار كلب إلى المنزل ؟

- نعم

ألا تعرفين أن الكلاب تطرد الملائكة من البيت ؟

- وربما تطرد الشياطين أيضا .

أدرك صـابر مغزى سـعاد من العبارة الأخيرة وبدأ شـكه يتحول إلى يقين من أنها تعلم شيئا ولا تريد إخباره ..

فكر أن يسألها عما حدث فى تلك الليلة لكنه تجنب أن يكون السؤال مباشرا :

- مارأيك فى وردة ؟

- بخصوص ماذا ؟

- بخصوص علاقاتها بك و... بالجيران .

- علاقتها بى طيبة أما علاقتها بالجيران فهى لاتخرج من شقتها .

ـ ليس شرطا أن تخرج هى ، يمكنهم ان يأتوا هم لزيارتها .

ـ لا أرى أحدا يدخل أو يخرج .

- أهى مثلك ...؟

- ماذا تقصد بمثلى ؟

أقصد فى علاقتك بالجيران .

- لا أحد مثل أحد .

- أتظنين أنها تحبنى .. ؟

- هذا السؤال يجب أن يكون لها وليس لى ..

- وأنت ..؟

- أنا ماذا ..؟

- هل تحبيننى ..؟

- لا أكرهك

- لاتحبيننى ، أعلم هذا ، كنت صادقة معى فى مشاعرك وأعلنت لى عدم رغبتك فى الاستمرار معى .. لكنى أرغمتك على البقاء وها أنا أدفع الثمن ..

- أى ثمن ..؟

- لا تشغلى بالك .. ونامى ..

- أستقضى الليلة هنا ..؟

- نعم

- إنها ليلة وردة ..

لم يرد عليها ونام ليلة لم تسمع فيها غطيطه الذى اعتادته لأول مرة .. كان مغمض العين مستغرقا فى أفكاره السوداء وليلته الأكثر سوادا ..

ظنت سعاد أنه ربما لاحظ شيئا على سلوك وردة لكنها ليست متأكدة تماما من أنه قد علم بأمر تلك العلاقة بين وردة وهشـــام لذا آثرت الصمت حتى تتكشف أمامها الأمور .

لم تره أبدا على تلك الحال من قبل .. كانت تشعر به طيلة الليل يتقلب يمينا و شمالا على غير عادته حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر فنهضت ، تو ضأت و صلت وما إن انتهت من تشهدها حتى ناداها ، دسَّ يده فى جيبه وأخرج الميدالية قائلا :

ـ أتعرفين لمن تلك الميدالية ..؟

نظرت تتفحص الميدالية التى تتأرجح بين إصبعيه :

– لا أعرف ..

– وجدتها فى غرفة نوم وردة ..

– أليست لوردة ... ؟

– إنها لـ ...

تعثر صـــوته ولم يكمل جملته ... صـــمت برهة ثم وجه إليها ســؤالا ممزوجا بالاستعطاف .

– لماذا تخفين عنى يا سعاد ..؟

– أخفى عنك ماذا ..؟

– أن وردة تخوننى ..

ارتبكت سعاد وهى تقول :

– من أين لك هذا الظن ؟

– هذا ليس ظنا ، هى تخوننى وأنت تكذبين علىّ ، تكلمى يا سعاد ، أخبرينى الحقيقة ، ماذا رأيت فى تلك الليلة .. ؟ لماذا أردت إحضار كلب إلى المنزل ؟ لحماية أزهارك من اللصوص أم لحماية عرضى الذى دنسته تلك الخائنة ؟ تلك الميدالية لمن ؟ أليست لهشام جارنا ؟ تكلمى أكاد أجن .

حاولت أن تهدئ من ثورته قدر ا ستطاعتها فيما يستحلفها أن تتكلم ..

كانت حائرة فهى لايمكنها أن تتكلم ولا يمكنها أيضا أن تستمر فى الكذب عليه فما كان منها إلا أن قالت :

ـ راقبها .

– إن راقبتها فيما سيأتى فكيف أراقبها فيما مضى ، كيف سأتأكد أن حملها منى وليس منه ؟ أرجوك يا سعاد تكلمى .

كانت كلما راوغته وأشــاحت بوجهها عنه جن جنونه أكثر وتأكد له ظنه فهبّ متجها ناحية الباب وهو يقسم أنه سيقتلها ، هرولت سعاد فى إثره تحاول منعه وهو يدق باب شقة وردة بكلتا يديه ثم ما لبث أن أخرج مفتاحه من جيبه وفتح الباب ، اندفع داخل الشــقة ، بينما أســرعت وردة تحاول الاحتماء خلف باب غرفة النوم الذى دفعه بكل قوته وهى تحاول دفع التهمة عنها :

ـ سعاد كاذبة ياصابر.. لا تصدقها ، لم أخنك ..صدقنى ..

ـ سعاد لم تقل لى شيء أنت التى اعترفت على نفسك الآن ..

دفع الباب وانهال عليها صفعا وركلا حتى حاصرها فى إحدى الزوايا فيما كانت سعاد تحاول جاهدة إبعاده عنها فكان يدفعها بعيدا ويعاود توجيه الضــربات لوردة التى تمكنت من الإفلات منه والهرب خارج الشقة وقد أغلقت خلفها الباب بالمفتاح الذى فتح به صابر وتركه فى موضعه حين دخل مندفعا .

هربت وردة ، ذهبت إلى المجهول تحمل فى أحشــائها جنينا... لم يدر أبدا أكان هذا الجنين ثمرة خطيئتها هى أم كان ثمرة خطيئته هو .

هل كان صابر ضحية وردة أم كانت وردة ضحية صابر حين سعى للزواج منها وهو يعلم ضعفه وعجزه عن مجاراتها وإروائها ؟

أم أنها كانت ضــحية الفقر وقســوة الحياة مع زوجة أب لم تتورع أن تلقى بها إلى أول خاطب بمجرد أن تعهد بكافة نفقات الزواج ؟

أتراها كانت ترســف فى نفس القيد الذى ترســف فيه ســعاد وحياة وغيرهما من اللائى يعشن تحت سقف منخفض يحن أعناقهن ويبقى رؤوســهن منكســة طوال الوقت وليس أمامهن ســوى خيارين إما الانحناء وإما الا صطدام بقسوة بهذا السقف الصلب ويتحملن ما قد ينتج عن هذا الاصــطدام من جروح وكســور تترك ندوبا واضــحة فى نفوسهن وربما أجسادهن ؟

هل كان صابر سيطلق وردة لو طلبت الطلاق ؟

على الأرجح كان سيفعل نفس ما فعله مع سعاد وربما كان أكثر قسوة وأنانية .

سعاد شاردة فى أفكارها .. غارقة فى تساؤلاتها بين ماحدث وما يمكن أن يحدث .

أما صابر فقد أمسى على حال غير الحال ، أطلق لحيته ، صار يتوارى من الناس من هول ما أحاط به ، يتجنب نظرات عيونهم التى يشــعر أنها تتبعه فلا تتركه الا لتســلمه لعيون أخرى تظل تتبعه هى الأخرى حتى فى فراشه .

يشعر أنه يمشى بين الناس عاريا ، يحاول مواراة سوأته التى بدت له فجأة على مرأى من الجميع ، يسمع تهامسهم بأذنيه ، يقول فى نفسه ..

حتما هم يتهامسون بما فعلت زوجتى فى فراشى مع ذلك الكلب الذى كان قطعا كان يتفاخر أمام أصدقائه بما فعل مع وردة التى حتما جردتنى من رجولتى قبل أن تتجرد هى من ملابسها وتسلمه مفاتيح مغارتها ولتبثه مالم تبثه لى من شوق ورغبة توسلا إليه ليمنحها المزيد و ... ،

آه يا صابر .. لكأنى أراك وأنت معلق على الحائط كصورتك البائسة فى غرفة نومك تراقب وأنت الأعزل من غزا أرضك و صال وجال فى منعطفاتها فارتوت منه وآتت طرحها جنينا ينمو فى أحشائها .

تراها أين ذهبت ...؟ لن أدعها تذهب بفعلتها ولن أدعه ، سأقتله ، لن أقتله مرة واحدة ، هذا لا يكفى ، سأقتله عدد المرات التى ولج فيها بيتى وأخرج فيها لسانه لرجولتى ..

ها هو صابر يمشى هائما ويقبع ساكنا وينام صامتا فلم تعد سعاد تسمع له غطيطا حتى أشفقت عليه وعرضت عليه أن يحصل على إجازة من العمل والسفر إلى أى مكان ليريح أعصابه .

لم تحاول تأنيبه ولا لومه على ما سبق وفعله معه كما كانت تفكر لتقول فيما بينها وبين نفسها : يكفى ما هو فيه ..

ظل صابر يبحث عن وردة فى كل مكان يتوقع أن تكون قد ذهبت إليه بلا جدوى فما كان منه فى النهاية إلا أن ذهب إلى نفس المأذون الذى زوجهما من قبل وحرر قسيمة طلاقها

ليعود فى ذلك اليوم شــبه مغيب وكأنه لا يرى ولا يســمع إلا ذلك المشــهد الذى يُعرض بداخله ليل نهار حتى أن ســعاد عندما كانت تتحدث إليه محاولة تهدئته تظنه لا يراها ولا يســمعها ، كان يبدو وكأنه ينظر إلى لا شيء .



كان حديثا قد جرى بين سعاد وحياة على خلفية ماحدث مع وردة لم تفصح فيه سعاد عن السبب الحقيقى لاختفاء وردة ولم تشأ حياة أن تخبر سعاد بما كان يتهامس به الناس عن علاقة آثمة وخيانة كانت تتم فى جنح الظلام فى منزل صابر عبد المولى وعن جار يتسلل إلى منزل جاره ، كان هذا التهامس أحيانا يطال وردة وأحيانا أخرى يطال سعاد التى لم تنس بعد مصاطب القرية ما تجرأت وذكرته فى مجلس الرجال .

أما حياة التى كانت تثق تماما فى صديقتها الأثيرة لم تتأثر بما كان يتطاير إلى سمعها مما يسوؤها عن صديقتها ولم تشأ يوما أن تنقل لسعاد تلك الإشاعات حرصا منها على عدم مضايقتها بمثل هذا الهراء .

لكنها حين سمعت بأمر اختفاء أو بمعنى أدق هروب وردة لم يكن من الصعب عليها أن تخمن السبب الحقيقى وراء هروبها وتأكد لها صدق إيمانها بنقاء وطهارة صديقتها الحميمة .

عادت حياة إلى منزلها عقب زيارتها لسعاد وصورة وردة تتراءى أمام عينيها وصوتها يتردد على سمعها .. تفكر فيما حدث وتتساءل:

هل عشقت وردة ذلك الشاب عشقا جعلها تمنحه جسدها أم أنها كا نت مجرد الرغبة فى إطفاء نيران شهو تها التى عجز الزوج عن إطفائها ..؟

ولكن ما الفارق ..؟ تتساءل حياة فى نفسها :

ـــــ هل يبرر الحب الخيانة ؟ أم يجعلها خيانة مزدوجة لتكون بذلك خيانة جسدية وقلبية معا ؟

تتوقف عند ذكر كلمة «الخيانة » يتبادر إلى ذهنها معنى لم تفكر في من قبل وكأن الكلمة غافلتها وواجهتها بما تعمدت إخفاءه وتمرست على إنكاره حتى عن نفسها ..

أيكون شعورها نحو أحمد نوعا من أنواع الخيانة ؟



ى ذات ظهيرة سمعت حياة ضجيجا فى الشارع ، نظرت من الشرفة لتستبين الأمر، سألت أحد المارة وهو يمضى مهرولا ..

ـ ماذا هناك ..؟

فأجابها :

ـ حادث سيارة عند المزلقان ..

بادرته : سيارة من ؟

كان المهرول قد مضى ولم يجبها .

عادت إلى المطبخ تواصل عملها وبعد حين دق جرس الهاتف كانت حسناء أسرع إليه من أمها ، تناولت منها السماعة وهى تسألها من المتحدث فإذا بها سعاد تخبرها

أن الأستاذ أحمد مدير المدرسة وقع له حادث سيارة عند المزلقان .

ما إن سمعت حياة الخبر حتى سقطت جالسة فى مكانها .

نادتها حسناء فى فزع :

ـ ماما ... ما بك ياماما ..؟

أتت حورية عندما سمعت نداءات أختها لتناديها هى الأخرى فأجابتهما أنها بخير .

وما إن أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها حتى دق جرس الهاتف من جديد .

فإذا بها سعاد تود الاطمئنان عليها والتأكد من أنها بخير فبادرتها حياة بالسؤال :

ـ هل أنت متأكدة من أنه هو ..؟

– هو من ...؟

– أحمد ، أقصد الأستاذ أحمد .

– نعم هو وزوجته وولداه ..؟

– كيف إصابته ، أقصد إصابتهم ..؟

– لا أحد يعرف بالتحديد لكنهم نقلوا إلى المستشفى جميعا .

– كيف علمت ؟

– إنه صابر .. كان عائدا من العمل .

– سأحدثك لاحقا يا سعاد يبدو أن حامد يفتح باب الشقة .

دخل حامد بينما كانت تضع حياة سماعة الهاتف فسألها عمن كان يحادثها .

ارتبكت فعاجلها :

ـ إنها سعاد أليس كذلك ؟ ألم أنهك عن التحدث معها ؟

– كانت تخبرنى عن الحادث ..

لم يهتم بما ذكرته عن الحادث واستطرد :

– لا أريد أن يتكرر هذا .

لم تكن ترغب فى خوض أى حوار فى تلك اللحظة ، يكاد يقتلها القلق حتى أنها لا تريد أن تفكر فى شئ سوى الاطمئنان علي الأستاذ أحمد .

لكن كيف لها أن تطمئن ؟ لاسبيل أمامها مادام زوجها موجودا بالبيت ..

تخشى أن لا تستطيع إخفاء توترها .

يمر الوقت بطيئا وحامد ماكث بالبيت ، برغم محاولتها أن تتصرف بطريقة طبيعية إلا أنه سألها عما بها فأجابته إنه ألم ينتابها ، ثم خطرت لها فكرة تمكنها من إبعاده عن البيت لبعض الوقت فطلبت منه أن يأتى لها بنوع معين من الأدوية ربما يساعدها فى تخفيف حدة الألم .

وما إن غادر البيت حتى أسرعت لتعاود الاتصال بسعاد وتسألها عما إن كانت قد وصلتها أخبار جديدة عن الحادث فتخبرها سعاد أنها أجرت قبيل قليل اتصالا بإحدى زميلاتهما فى المدرسة

حيث تعمل أختها فى مستشفى الطوارئ أخبرتها تلك الزميلة أن زوجة الأستاذ أحمد بحالة سيئة بينما هو أصيب بكسر فى إحدى ذراعيه وبعض الرضوض والكدمات ، أما الولدان فكانا قد أغشى عليهما حيث كانا فى المقعد الخلفى وهما الآن بخير.

اطمئن قلبها بعض الشئ بعد تلك المهاتفة التى حرصت على أن تنهيها قبل عودة حامد الذى أتى لها بشريط من الأقراص المسكنة تناولته منه وذهبت إلى المطبخ أفرغت أحد أقراصه وألقت به فى السلة وعادت إلى حامد الذى كان قد جلس ليشاهد التلفاز ، يظن من يراها جالسة إلى جواره أنها تتابع معه أحداث مباراة لكرة القدم .

تتساءل فى نفسها عن ماهية شعورها نحو أحمد أهو فقط مجرد شعور مراهق لم تكن قد عاشته من قبل فى صباها و سريعا ما سيزول عنها أم أنه الحب ؟ الحب الحقيقى الذى لا يصادف القلب إلا مرة واحدة فى العمر ؟

لم هو وحده دون غيره ؟

هل لأنه مختلف عن زوجها الفظ المتجهم دائما حتى لو كان ينظر لوجهه فى المرآة ؟

زوجها الذى لم يغازلها مرة واحدة ولم يخبرها بأنها جميلة ، زوجها الذى لم يتحسس أبدا مدى رغبتها فيه ولم يسألها عن شعورها نحوه وإن كانت سعيدة معه أم لا ، والذى لم يهتم بمظهره من أجلها ولم يفح منه ذلك العطر الذى كان يقابلها ويعانق روحها بمجرد دخولها إلى المدرسة .

تفتقد ذلك العطر الآن ، تفتقد تلك الابتسامة الحانية والصوت العذب .. تتمنى لو تهب واقفة لتعدو نحوه أينما كان وتمسح بيدها على ألمه فيبرأ ، تتمنى لو يمسح بيده على قلبها لتستريح ، تتمنى لو تقول له أحبك ، تتمنى لو ...

إنها الأمنيات ..! مخلوقات صغيرة وجميلة تحيا وتموت بداخلها دون أن يشعر بوجودها أحد .

انتهت المباراة بخسارة أحد الفريقين أمام الآخر هكذا الحياة دائما هناك خاسر ورابح...

يسألها إن كان الألم قد ذهب بعد تناول الدواء فتخبره بأنه قد ذهب .

يأتى الليل طويلا متجهما وهى التى طالما كانت تستحلف الشمس بالبقاء فتأبى إلا أن ترحل لتجد نفسها رغما عنها فى فراش حامد ، فما إن استلقت بجواره على السرير حتى بدأ يتحسس جسدها معلنا عن رغبته فيها ، اعتذرت إليه بأنها متعبة .

بادرها : ألم تخبرينى منذ قليل أن الألم قد ذهب .

أجابته بأنه قد عاودها لتوه وأنها فقط تريد أن تستدفئ وتنام .

لوى عنقه واستدار وهو يلعن حظة البائس ناعتا إياها بلوح الثلج .

لم تعقب على ماقاله فكم اعتادت سماع تلك العبارات حتى ألفتها .

يعاود الكرّة فى الليلة التالية لتعاود هى اد عاد التعب والإر هاق ، ينذرها بنفاد صبره وينذرها متوعدا أنه لا يريد أن تمتد يده عليها ثانية بالضرب ولكنها هى من تستفزه وتثير حنقه عليها .

كانت كل عبارة من عبارات التهديد التى يطلقها بمثابة حجر جديد يزيد من ارتفاع الجدار الذى وُضعت لبنته الأولى فى أول ليلة لهما معا .

صار أكثر عصبية وحدة عن ذى قبل ، يمعن فى إ صدار الأوامر مهتما بأتفه الأشـياء فى البيت ، يتحسـس ذرات التراب التى من الممكن أن تتراكم على أى قطعة أثاث ليتهمها بالإهمال فى نظافة بيتها ، يدعى فقدان أحد الأقلام أو ورقة ما وضعها هنا أو هناك لينتهى الأمر بوابل من الاتهامات وعبارات التوبيخ .

ضـاقت نفسـها بما يحدث وزاد من ضـيقها قلقها واشـتياقها لأحمد الذى لم تكن تدرى حقيقة شعورها نحوه مجرد شعور عابر أرادت به أن تثبت به لنفسـها أنها قادرة على الحب وأنها إنسـانة من لحم ودم وليست لوح ثلج كما ينعتها زوجها دوما .

أيما كان حقيقة شـعورها نحوه فهى لا تريد سـوى رؤيته والاطمئنان عليه .

انتهزت فر صة ذهاب حامد لزيارة زميل له فى بلدة مجاورة ، وذهبت لزيارة سعاد والإفضاء لها ببعض مايعتمل فى صدرها ، ربما تسمع منها خبرا تتمنى أن يكون مطمئنا عن حبيب زاد شـوقها إليه كونه رهين الفراش وكونها رهينة البيت ...

سألتها سعاد حين لاحظت شحوب وجهها :

ـ ما بك يا حياة ؟

– تعبت يا سعاد لم أعد أحتمل حياتي معه أكثر من هذا .

– هل ضربك ثانية ..؟

– لا .. لم يضـربنى لكنه توعدنى بذلك إن بقيت على حالى الجديدة معه ..

– وكيف هى حالتك الجديدة معه ..؟

ـ ما عدت أطيقه أن يلمسنى ...

– صمتت حياة عن كلام كانت تود أن تفصح عنه ،

لكن كيف .. ؟

هل يجدر بها إخبار سعاد بأن قلبها متعلق برجل آخر وهى متزوجة .. وماذا ستجنى من وراء إخبارها بذلك ؟

لاحظت سعاد صمتها وحيرتها :

– ترفقى بنفسك لا أظنه سينفذ تهديده ..

حياة وقد انتبهت :

ـ من ؟

ـ حامد ، أهناك شيء آخر يسوؤك ؟

– لا .. لا شئ ..

حياة وقد حاولت تغيير مجرى الحوار :

ـ ماذا عنك أنت ؟

– أنا أيضا لا شئ ، لا شئ سوى الصمت والكآّبة والملل ، حياة أشبه بالموت ...

تتنهد قائلة :

ـ ماذا نملك غير الشكوى ؟

تعقب حياة :

– أنت تملكين غير الشكوى إن أردتِ .

– كيف ..؟

– يمكنك طلب الطلاق .. الأمر بالنسـبة لك أسـهل حيث لاقرابة بينكما ولا أولاد ..

– لقد فعلت ذلك سابقا وحدث ماحدث .

– ربما إن حاولتِ ثانية يستجيب لك .

– أحيانا أجدنى خائفة .

ـ خائفة ! مم ؟

ـ من كل شيء ، من الناس ، من أهلى ، من وصمة مطلقة للمرة الثانية .

صابر برغم كل شئ إنسان طيب وكريم ، أقول لنفسى : لايهم الحب فكم من أزواج يعيشون معا بلا حب ، ولكن أعود فأقول وماذا سيبقى بينى وبينه إذ لاحب ولا متعة ولا أولاد ؟

أحيانا ينتابنى ندم على رفضــى الاســتمرار مع زوجى الأول وتقبل فكرة أن يتزوج بأخرى على الأقل كانت هناك مشــاعر طيبة تربطنى به وأحيانا أخرى أعود وأحمد الله على أنى لم أقبل بهذا الأمر وأنى تمسكت بالطلاق فلم أكن أحتمل مجرد التفكير أن رجلى الذى أحب سينام فى أحضان امرأة أخرى ، فكيف كنت سأحتمل الواقع بكل قسوته ؟!

– لا تندمى على مافات ولكن فكرى فيما هو آت ..

ـ وأنت ماذا تنوين أن تفعلى ..؟

– أنا مشكلتى أكبر بكثير ..إنها تزداد تعقيدا بمرور الوقت ، صدقينى أنا لا أعرف ماذا سأفعل لكن الـ شئ الوحيد الذى أعرفه وأُ صرّ عليه أنى لم أعد أطيق أن يلمسنى .

– لكن إذا بقيت على امتناعك عنه قد ..

قاطعتها حياة قائلة :

– يضربنى ..؟

– كما فعل سابقا ..

– ربما .

يسود صمت ليس بطويل كأنما تصغى كل منهما إلى داخلها ،

تقطع حياة ذلك الصمت بسؤال جاء على استحياء :

- هل من أخبار جديدة عن الأستاذ أحمد ؟

- أخبار مؤسفة والله يا حياة .

ارتعد قلب حياة وتغير وجهها فيما أكملت سعاد :

توفيت زوجته متأثرة بإصابتها بنزيف داخلى .

- زفرت حياة زفرة ثم سألتها :

- وكيف هو ..؟

ـــ هو بخير غير أن جبرت ذراعه ، ما رأيك أن تذهبى معى لتقديم واجب العزاء ؟

- لا أعتقد أن حامد سيوافق .

- عزيه بالتليفون .

- هل لديك رقم هاتفه ؟

- ليس معى الآن ولكن يمكننى الحصول عليه من أحد الزملاء .

عادت حياة إلى بيتها وقد شعرت بشئ من الارتياح بعد حديثها مع سعاد ، عادت يداعبها الأمل فلا يسعها إلا أن تدفعه بعيدا ولسان حالها يقول :

دعك منى أيها الأمل ، سيبطش بنا حامد .

***



صارت أيام سعاد أكثر كآبة خاصة مع تلك الأزمة النفسية التى يمر بها زوجها وهو قابعا طيلة الوقت شاردًا ، أى حياة تلك التى تحياها مع زوج لا تكاد تشعر بوجوده ؟

تنظر إلى صابر الذى يجلس فى مكانه لايكاد يحرك ساكنا تحدث نفسها ..

أينا أكثر شقاءا وبؤسا ... أنا أم أنت ؟ أينا أحق بالشفقة ..؟

أحيانا تنتابنى رغبة فى تحطيم كل ما يحيط بى ، الأوانى ، الأثاث وحتى الجدران ، أود لو أطلق صرختى فى وجهك .. كفى ، أريد رجلا يدير ساقيتى المعطلة ويروى أرضى العطشى ، لقد ذبلت أزهارى وتساقطت أوراقى على أرضك الجافة لتدوسها قدماك فى أنانية قائلة : هل من مزيد ؟

هذا غراس الأمس وقطاف اليوم فماذا سأنتظر من الغد غير هشيم العمر تذروه الرياح ؟

لقد خانتك وردة مع رجل تسلل إلى فراشك أثناء غيابك أما أنا فكنت أتسلل فى كل ليلة وأنت نائم بجوارى إلى باحة الحلم وأغلق دونى ودونك بابا وآتى بجذوة من نار أحسها تستعر داخلى لتضىء لى أنا ومن أختاره فى تلك الليلة ليحرث أرضى

ويمسحها بحنان ويطوف بين قطافها ، ينهل منى شهدا وأنهل منه ريًا وانتشــاء ، أســتيقظ على برودة فراشــك وقد خبت جذوتى وتبددت نشوتى ، أجد نفسى عطشى وأرضى جافة وفاكهتى قد استكانت فى ذبول حتى إشعار آخر فى ليلة أخرى .

سئمت من النشوة الكاذبة وأرهقنى الخيال .

إلى متى سأظل هكذا ؟

فُكَّ لجامى وتجنب ثورتى ، ألا تخشــى أن أوجه إليك طعنة قد تكون قاتلة ؟

لكنك لن تفعل ، أنت أنانى ، جبان ، ســتهرول إلى من يســاعدك فى إبقائى مقيدة فى حظيرتك الخربة التى لاتليق بمثلى .

إنك تستحق مافعلته بك وردة ، لقد صفعتك على وجهك صفعة تردد صــداها فى أذنيك لتقول لك .. أنت كاذب ومدع وهذا جزاء كذبك عندى ، لدغتك أنثاك وهربت ولم تع الدرس ولم تفكر أن الثانية قد تكون قاتلة ..

آه يا سعاد ما أشقاك إذ لاتملكين حق الصراخ ، فلتبقى صامتة تأكلك نيران الرغبة والغضــب أو تأكليها فكلتا الحالتان حارقة و حارة كزفرتك التى تنطلق من داخلك كأنها بركان غضب .

تنتبه من شرودها ، تخطو نحو صابر فى تكاسل كأنما تجر قيدا حديديا ثقيلا فى قدميها تســأله « إن كان يرغب فى تناول العشــاء » لتتلقى الجواب المعتاد منه فى الفترة الأخيرة ألا وهو الصمت .

لاشــئ يحدث فى هذا البيت ســوى الصــمت ، لكأنه هو والجدارن والأثاث وصابر قد تواطأوا جميعهم على قلبك يا سعاد !

تعاود الســؤال وتردفه بعبارة تحاول بها زحزحة الثقل القابع فوق صدريهما :

أحضر لك العشاء أنت لم تأكل جيدا فى الغداء ؟

لا يجيب وإنما يخطو نحو الفراش بخطوات متباطئة كعجوز أثقله الدهر وهو يقول :

ـ تعشى أنت ، أنا سأنام .

ينام وتبقى ساهرة ، تجالس وحدتها ، لايواتيها النوم حتى الحلم فقد صار عصيا .

يمر الليل عليها طويلا بطيئا كليل حياة التى تخشــى أن ينفذ صــبر زوجها فى أى لحظة ويعلوها مخترقا دفاعاتها الضــعيفة التى لايكاد يراها ولايعمل لها حســابا ، حتى أنه عندما قررت أن تمتنع عنه متذرعة بادعاءات لم تعد تجديها لم يعتبر هذا إرادة منها بقدر ما اعتبره صبرا منه ، ولم يرهق نفسه بمحاولة

فهم أسـباب عزوفها عنه والتقرب إليها بكلمة حانية بدلا من عبارات التوبيخ والتوعد التى لا يكف عن إطلاقها فى وجهها كلما امتنعت عنه .

فى الصـباح يذهب الجميع وتبقى وحدها بالبيت تعمل ما اعتادت عمله كل يوم تغسـل نفس الأوانى والأطباق ، تعيد ترتيب نفس الأشياء ، فى تلك المرة ألقت بصرها على الستار المنسدل على المرآة الكبيرة ، خطت نحوه وما إن أزاحته حتى بدت لها صـورتها ، تتأملها متحسرة :

– أهذه أنا ! أهذا وجهى ..؟

– نعم هذه أنت وهذا وجهك .

– لكأنى أرى أمامى وجه امرأة قد فارقتها الحياة ..

– ليس هذا ما ترينه إنما هو ماتشعرين به .

– أين نضارة وجهى وصفاءعينىَ ؟ لم أعد حياة الجميلة .

– أنت مازلت حياة الجميلة لكنك تخبئين هذا الجمال خلف عباءة قاتمة ورثة تحرصين على إرتدائها طوال الوقت .

ـ لو أمكننى أن أرتدى عباءة تخفينى تماما لفعلت .

ـــــ هو ليس هنا الآن ، هيا إرتدى قميصــك الحريرى الزهرى اللون الذى تخبيئنه عنه ، أزيحى تلك العصابة عن رأسك ، صففى شعرك ، ابتسمى وسترين كم أنت جميلة .

فى تلك المرة لم تسدل الستار على المرآة ، ذهبت وأحضرت القميص ثم بدأت فى خلع ملابســها حتى صــارت عارية تماما وما إن همت بارتدائه حتى فاجأها حامد الذى لم تشعر بدخوله من باب الشقة عائدا على غير موعد وما إن لمحته حتى حاولت بحركة سريعة وتلقائية ستر ماتيسر من جسدها بالقميص الذى كان فى يدها ، مد يده وجذبه منها بقوة كاشــفاعن أنثاه ، همَّ بها ، تراجعت للوراء بضــع خطوات ، اســتدارت محاولة الابتعاد عنه بخطوات ســريعة ، أهاجه ظهرها العارى ، اندفع خلفها ، أمسكها بقوة ثم طرحها ظهرا ، حاولت دفعه عنها وســحب جســدها بكل قوتها ، ثبتها بيد واحدة أعجزتها عن النهوض ، أنزل بنطاله باليد الثانية ، صــار نصــف عار ، كادت أن تنفلت منه فأعاد طرحها بقوة ثم ضغط بكلتا يديه على كتفيها ، ساعده ثقل جســده وضــخامته على شــلَّ حركتها ، تتابعت صــرخاتها وقد أشاحت بوجهها ناحية المرآة ، خارت قواها وخمدت صرخاتها ، كان قد انتهى منها واستلقى بجوارها مستريحا استراحة من غزا وانتصر .

قامت توارى جسدها ، أمسكت بطرف القميص الذى كان قد انطرح فوقه وسحبته من تحته بغضب أحدث به فتقا ، لفت به جسدها وخطت بضع خطوات متثاقلة مبتعدة عنه متجهة نحو باب الغرفة مارة بالمرآة فإذا بها شعثة الشعر خائرة القوى فما كان منها إلا أن أمسكت بزجاجة عطر وقذفت بها وجهها فى المرآة ، أحدث الارتطام مايشبه الفوهة ، تناثرت الشظايا فى أرجاء الغرفة واشتعلت المرآة بالشروخ المتناثرة عليها لترى وجهها فى إحداها مشطورا إلى نصفين وقد أخفى الشرخ أنفها .

إنتبه من ا ستلقائه على صوت تحطم المرآة ، هبَّ واقفا و صارخا فيها :

ـ أجننتِ ..؟

لم تلتفت له ولم تهتم لزعقاته الغاضبة ، أحكمت الإمساك بأطراف قميصها على جذعها حتى لايسقط عنه بيد وأمسكت باليد الأخرى قطعة من المرآة المحطمة و قذفته بها بكل قوة ، لكنه تحاشا ها بالانخفاض سريعا وقبل أن تكرر فعلتها بقطعة ثانية وقد انتابتها نوبة غضب وبكاء هستيرى اندفع باتجاهها محاولا منعها من قذفه بالمزيد فوطئت إحدى قدميه شظية من الشظايا المتناثرة ، أدمته وزادت من حدة غضبه ، انحنى على قدمه

والتقط الشـطية ثم اندفع ناحيتها وانهال علي وجهها صـفعا ، لم تكن تحاول تحاشـى صـفعاته فى تلك المرة بقدر ماكانت تحاول أن توجه صـفعاتها له مما آثار جنونه فظل يضـربها بقوة ويدفعها للخلف حتى اصطدم ظهرها بالحائط وسقطت على الأرض .

خارت صرخاتها وصارت نشيجا خافتا .

تركها وخرج متجها إلى الحمام ، أخذ حماما وضـمد قدمه ثم خرج صافقا الباب خلفه .

اسـتجمعت ماتبقى لديها من قوة وحاولت النهوض ، خرجت من الغرفة متجهة إلى الحمام أغلقت الباب عليها من الداخل ، إنزوت فى ركن منه وراحت تجهش بالبكاء .

عادت حورية وحسـناء من المدرسـة تبحثان عنها وما إن سـمعتهما حتى كتمت صوت أنينها كى لا تفزع صغيرتيها .

نادتها حورية :

ـ ماما ، أين أنت يا ماما ؟

يأتيها صوت أمها ، مبحوحا ومتقطعا :

ـ إذهبى لغرفتك ، سأخرج بعد قليل .

تفتح الصنبور، يتدفق الماء البارد فوق رأسها وعلى جسدها ، تمعن فى صبه عليها بغزارة تود لو أنه يغسلها منه ، بعد حين تخرج لتجد الفتاتين فى انتظارها تسألانها عن أبيهما وطعام الغداء !

تلحظ حسناء ما بوجه أمها فتسألها فى براءة :

ـ هل اصطدمت بالحائط ثانية ياماما ..؟

تكنس شظايا المرآة المتناثرة فى صمت لم تبدده صرخاتها التى مازالت تتردد على سمعها ، بينما تتراءى أمام عينيها مشاهد متقطعة ومتناثرة لما حدث تبرق فى ذاكراتها وتدمى روحها كتلك الشظايا المتناثرة .

نظرت فى قطعة من المرآة المحطمة ، تأملت وجهها ، بدت آثار أكفه واضحة عليه :

– أنت الآن أجمل ... أجمل من أى مرة رأيتك فيها !

– أتهزئين بى ؟

– لا أهزأ بك وإنما أراك أجمل .

– اغتصبنى وضربنى ، لقد أهاننى إهانة كبيرة .

– ماحدث كان إهانة له وليس لك ، مزيد من القوة تحتاجينه الآن لزحزحة تلك الصخرة التى بداخلك لتخرجى من قبوك المعتم .

- قبوى أنا ..!

- نعم أنت ..

- ألم أحطمك منذ قليل ...؟

- حطمت المرآة فقط ، أما أنا فلا يمكنك تحطيمى ، يمكنك أن تسمعينى وترينى حتى بدون مرآة وأنا كذلك يمكننى أن أسمعك وأراك .

- إذن كنتِ معنا تشاهدين وتسمعين ..؟

- دائما أنا معك أنا توأمك الذى يحيا بداخلك .

- أخبرتنى أمى أنه كان لى أخٌ توأم وُلد ميتا ، كمْ كنت أتمنى أن تسكن روحى فى جسده بدلا من جسدى .

ـ كنتِ الأقوى فى رحم أمك ، وكان من الممكن أن تظلى بنفس القوة ، لكن بمضى الوقت كنت أراك تضعفين شيئا فشيئا ... كم حاولت أن أتوحد معك وأحرضك على صمتك الذى ظل يؤلمنى حتى كاد يمحونى من داخلك حتى أطلقت صرختك فى وجه حامد وقلت «لا» صرختك تلك أنجبت الشظية الصغيرة التى أدمت قدمه الكبير .

- لكنه هزمنى وانتهك جسدى .

- انتهك جسدك فلا تدعيه ينتهك روحك .

- كيف ..؟

- افعلى ماتريدين فعله .

- أريد أن أترك هذا البيت ..

- اتركيه .

- أريد أن أترك حامد إلى الأبد .

- اتركيه إلى الأبد .

- أريد أن ... أخبر أحمد بحبى له .

- أخبريه بحبك له .

- أريد أ شياء كثيرة .. ولكن من أين لى بالقوة التى تمكننى من إمضاء إرادتى ..؟

- حاولى .

- أتعرفين ماذا ستكون النتيجة .. ؟

- مزيدا من المعاناة .

- أهذا ماتريدينه لى ..؟

- إن كانت تلك إرادتى فأين إرادتك أنت ..؟

- أنت لست حقيقة ، أنت أخبرتنى هذا من قبل .

- نحن نصدق مانريد تصديقه ..

- أنا فقط أحدث نفسى فى قطعة مرآة .

- إذن فأنا نفسك .

ـ لا .. أنت لا شيء ، أنت مجرد وهم .

ـ وأنت ؟

ـ أنا ماذا ؟

ـ لا شيء ، أيضا مجرد وهم .

ـ أنت مجرد صورة حمقاء.

ـ أنت مجرد صورة حمقاء.

ـ لا تكررى ما أقول .

ـ لا تكررى ما أقول .

ـ أنا سأحطمك.

ـ أنا سأحطمك .

أخذت تدق بغضب قطعة المرآة حتى حولتها إلى ذرات صغيرة ثم أسندت ظهرها للحائط وانفجرت بالبكاء .

بعد حين كومت حطام المرآة المتناثر بفرشـاة صـغيرة وأزاحتها على جاروف بلاستيكي وذهبت للإلقاء به فى السلة ، فإذا بصورة وجهها وقد تناثرت أمامها على حطام المرآة فى تحد ، أهالت الحطام داخل الـ سلة وأغلقتها وخرجت مـ سرعة كأنما تهرب من شبح فإذا بحورية أمامها تسألها بدهشة :

ـ ما بك يا ماما ؟

تصرخ فى غضب أفزع ابنتها :

ـ لا شأن لك ، ادخلى إلى غرفتك ، نادى أختك سنغادر الآن .

جمعت بعض ملابســها فى حقيبة صــغيرة ثم ذهبت إلى غرفة طفلتيها وجمعت بعض ملابسهما وكتبهما وهما تتساءلان :

إلى أين سنذهب ياماما ؟

ـ إلى بيت جدكما .

ـ وبابا ...؟

ـ لن يأتى معنا .

ـ سيلحق بنا ؟

أمرتهما بالإســراع فيما قفزت حســناء فرحا وهرعت تســاعد أمها فى جمع أغراضها .

حملت حياة الحقيبة بيد وأمسكت بيد صغيرتها حسناء باليد الأخرى ، فتحت باب الشــقة على عجل ، لم تنتظر حتى تلقى نظرة أخيرة عليها ، أغلقت الباب خلفها ، تعمدت أن تســلك طريق لم يعتد حامد أن يسلكه حتى تتحاشى احتمالية أن يتصادف ذهابها بعودته .

يعود فلا يجدها بالبيت لأول مرة فى حياتهما معا ، خرج فى إثرها مســرعا عســاه يلحق بها قبل أن تصــل إلى بيت أبيها لإعادتها إلى بيته كانت قد ذهبت ، وصــلت إلى بيت أبيها ، دقت الجرس وحين فُتح الباب فوجئت به جالسا مع أبيها وأمها .

لقد سبقها حين سلك طريقا مباشرا بخطوات أسرع وأوسع .

أما هى فكانت تمضى مع ابنتيها بخطوات كأقدامهن صغيرة ، ألقت بحقيبتها ودخلت مباشــرة إلى غرفة أبويها دون أن تنطق بكلمة واحدة بينما ينظر ثلاثتهما فى دهشة قطعتها أمها قائلة :

ـ سأذهب لأرى مابها .

وما إن رأت الأم آثار الضــرب على وجه وجســد ابنتها حتى ضــربت بكفها على صدرها وهى تشهق :

يامصيبتى يابنتى .. ؟

إنهالت دموع حياة وارتمت على صــدر أمها ، تقول بصــوت يخالطه البكاء :

ـ ضربنى يا أمى .

ضمت الأم ابنتها إليها محاولة تهدئتها والا ستفسار منها عما حدث وهى غاضبة لما حدث ثم خرجت لتعاتب زوج ابنتها على فعلته ..

– أهكذا ياحامد .. تعامل ابنة عمك وأم بناتك ؟ أتضربها حتى يتورم وجهها ؟

يتساءل الأب :

ـ ماذا حدث ؟ مابها حياة ؟

– اسأل ابن اخيك .

– ماذا حدث ياحامد يا ابنى ؟

– يقابل حامد ثورة الأم وسؤال الأب بهدوء وثقة :

– لاشــىء ياعمى ... فقط أســتأذن زوجة عمى فى كوب شــاى إذا سمحت لى بالحديث معك حديث الرجال .

نظر الأب إلى زوجته نظرة واحدة خرجت على إثرها ، ليبدأ حامد فى سرد ماحدث لعمه :

– حياة ياعمى تغيرت أحوالها منذ فترة وبالتحديد منذ عودتها للعمل وزياراتها المتكررة لسعاد خليل صديقتها .. ألا تعرفها ؟

– أعرفها ، ما شأن حياة بها ؟

– صـــديقتها المقربة وقد أمرتها أن تقطع علاقتها بها لكنها أصـــرت ليس فقط على الاتصال بها بل وزيارتها أيضا .

– يجب عليها أن تطيعك .. هى لاشك مخطئة ..

– تركتها ياعمى وقلت فى نفسى .. الطيب أحسن ، لكنها

لم تحترم كلامى وزادت فى عصيانها وإهمالها المتعمد لى ولبيتها وحتى لمظهرها وو صل الأمر بها إلى أن تترك غرفة نومى والذهاب للنوم فى غرفة البنات .

– هذا خطأ كبير وحرام أيضا .

– قلت أصبر عليها ربما تعود إلى عقلها .

– أصيل ياحامد يا إبنى .

– طلبت منها ترك العمل حتى تســتريح ويكون لديها الوقت الكافى للاهتمام ببيتها وبنفسها .

– خيرا فعلت ..

– وهذا الخير ينقلب على بشر ..!

- كيف ...؟

- زادت فى إهمالها وعصيانها وهجرها للفراش حتى أنها إمتنعت عنى تماما وكلما ذكرتها بأن هذا حقى الشرعى تعللت بأسباب أعرف يقينا أنها مجرد حجج واهية تتهرب بها منى مرة وإثنتين وثلاثا ..

- لا لا ، لايرضينى هذا أبدا .

- الأهم من ذلك ياعمى أنها بدأت ترفع صوتها عليَّ وتتبجح معى فى الحديث .

ـ حياة !

ليس هذا فقط ..

- ماذا ثانية ..؟

- حطمت مرآة التسريحة وقذفتنى بقطعة منها ولولا ستر الله لكانت قد شقت وجهى فما كان منى إلا أن صفعتها فى لحظة غضب والله ياعمى .

من حقك تضربها وتكسر رقبتها أيضا ، كيف يحدث هذا من حياة العاقلة المهذبة ..؟!

- اسألها إن كان ماقلته هو ما حدث أم لا .

- أنا لا أكذبك يا بنى ولكنى مندهش مما تقول .

- وبرغم كل هذا عندما تركت البيت سبقتها إليك لأسترضيها وأعود بها إلى بيتها معززة مكرمة .

- ونعم الرجل ياحامد يا ابنى ، انتظرنى دقائق فقط .

خرج الأب وهو يستشيط غضبا من ابنته التى ما إن دخل عليها حتى همَّ بها ليضربها لولا أن حالت الأم بينه وبينها قائلة :

ــــــ إهدأ يا حاج ، يكفى ما بها لقد تورم وجهها وذبلت عيناها من البكاء .

- اتركينى ياحاجة أؤدبها وأعلمها كيف تحترم زوجها وتطيعه .

تحاول حياة كبح دموعها قائلة :

- أنت استمعت له ولم تستمع لى .

- ماسمعته يجعلنى أقطع رقبتك ..

- لماذا ياأبى ..؟ ماذا قال لك ..؟

- قال إنك عصيت أمره عندما منعك من زيارة سعاد خليل بنت الـ..... تقاطعه الأم :

ـ حرام ياحاج ، عندنا « ولايا » .

تعترض حياة :

- سعاد إنسانة طيبة وليست كما تظنون .

- إذن فقد حدث وزوجك لم يفتر عليك وبالطبع هجرته فى الفراش ولم تعطيه حقه الشرعى .

- لقد ضربنى حتى تورم وجهى !

- ضــربك لأنك ناقصــة أدب وكان لابد أن يؤدبك .. وإن لم تطيعيه وتخرجى إليه الآن وتعتذرى له أنا الذى ســأؤدبك وأعلمك كيف تطيعين زوجك .

- إهدأ ياحاج .. إنها حياة العاقلة ، رفقا بها .. اتركها لى وســوف أتحدث معها .

خرج الأب لتتوسـل الأم إلى ابنتها أن « تخزى الشـيطان » وأن تخرج إلى زوجها وتبادره الاعتذار تجنبا لغضب أبيها .

تبكى حياة :

ـ أرجوكِ ياأمى طلقونى منه ، لا أريده .

تنهرها الأم :

- إياك أن تقولى مثل هذا الكلام أمام أبيك ، والله إنها عين حاســد قد أصــابتكما ، اعقلى يا ابنتى ، حامد ابن عمك وأبو بناتك وطول عمره بيحبك .

– لقد أخذنى بالغصب يا أمى ..

– ولماذا لايكون بالرضا يا ابنتى ؟ رضا الله من رضا الزوج ..

– ماعدت أطيق معاشرته ، ما عدت أطيقه أن يلمسنى ..

– أنت فقط غاضبة لأنه ضربك ، حامد مهما كان عصبيا لكنه طيب .

ـ أنا لا أحبه يا أمى ولم أحبه فى أى يوم .

– إياك أن يسمعك أبوك تقولين مثل هذا الكلام الفارغ ...

وبينما كان الحديث يدور بينهما إذ بطرقات على الباب ، إنه حامد يستأذن فى الدخول لمصالحة زوجته ومعه أبوها ، يدخلان ، يقترب منها مقبلا رأسها مبديا أسفه على مرأى ومسمع من أبويها اللذين شكرا له حسن صنيعه وأثنيا على أدبه الجم .

أما حياة التى أشاحت بوجهها بعيدا عنه فكان جزاؤها أن وبخها أبوها وأنذرها بما قد يسوؤها منه إن لم تعتذر وتستجب لرغبة زوجها فى العودة معه .

لم تستطع حياة أن تذكر أمام أبيها ماذكرته أمام أمها من رغبتها فى الطلاق خوفا من ردة فعله التى حتما ستكون غاشمة .

لم يكن لديها خيار ســوى أن تعود أدارجها مقهورة ومرغمة ، تجر خطاها ، يثقل كاهلها حمل ثقيل ، حمل تراكم عبر تاريخ طويل أطول من سنوات عمرها بمئات وربما آلاف السنين وكأنما قد أحنت تلك الســنوات قامتها حتى كادت تبدو مقاربة من قامة ابنتها ذات العشــرة أعوام بينما كان هو يتقدمها ببضع خطوات ، قدماه كبيرتان منبسطتان بقوة وثبات على الأرض ، نفس الأرض التى و طأ ها من قبل أبوه وجده ، يمضــى منتصــب الرأس فارع الطول ، يلقى الســلام على من يمر بهم بصوت جهورى .

وبينما هم ماضــون فى طريقهم إذ داعبت روحها نســمة حملت إليها عبيرا ســاحرا وســمعت صــوتا خفق له قلبها يرد التحية التى ألقاها زوجها فرفعت رأ سها قليلا ، إنه أحمد فى سيارة يقودها زميل لها على مهل يســتوجبه الطريق الترابى الذى يقودها عليه ، تســارعت دقات قلبها ،

حاولت إخفاء وجهها بوشــاحها كى لايلحظ مابه من كدمات مع التفاتة لم تكن تطاوعها تماما للناحية الأخرى ، عبرت الـ سيارة بعد أن أثارت خلفها بعض الغبار الخفيف المعبق بعبير ظل يعانق روحها ويلثم وجهها فيمسح عنه آثار أكف غليظة .

تتساءل فى نفسها :

أتراه لاحظ ما بوجهى من كدمات .. ؟

أتراه لمح عينىً الدامعتين .. ؟

بل أتراه تعرف علىً..؟ تخشى أن تؤلمها الاجابة .

كانت تود لو تســلك نفس الطريق الذى ســلكه ، تتبع عبيره لكن حامد انعطف فكان لزاما عليها أن تنعطف إلى حيث يقبع بيته فاغرا فاه متأهبا لابتلاع ما تبقى من عمرها .

تمضــى الأيام لأنها يجب أن تمضــى ، تدور الشــمس فى فلكها والأرض حول نفسها مابين شروق وغروب كلاهما مقيت.

تجر خطاها مثقلة بقيود تحســها ولا تراها ، تنظف ، تطهو ، ترتب ، تتألم ، فى صــمت ، تأوى بالليل إلى فراشــها لاحزن ولا فرح ، لاحياة ولا موت ، لم يعد لديها رغبة فى الخروج ولا فى الحديث مع أى إنســان حتى مع صــديقتها المقربة لم تكن تتفوه غير كلمات قليلة ومقتضبة فقط إذا اقتضت الضرورة .

حامد يبدى ارتياحه لهدوء زوجته وكيف صـــارت مطيعة وإن كان يضايقه عدم اهتمامها بنفسها وتلك الملابس المهلهلة التى تُصرعلى ارتدائها بالليل والنهار وتلك الع صابة التى تحكم شدها على رأ سها طيلة اليوم والتى كان يطيح بها كلما رغب فى مواقعتها ،

لم تعد تعترض ولم تعد تتذرع بأى من الحجج التى طالما كانت تتذرع بها من قبل ، بل تظل صامتة حتى عندما يكشف عن ساقيها إلى مجمع فخذيها فلا تحرك ســاكنا غير أنها كانت تنظر إلى ســقف الغرفة التى كانت دوما تشعر أنها قاب قوسين

أو أدنى منها حتى خُيل لها أنها تكاد تنطبق فوقها وتزهق روحها إلى أن ينتهى منطرحا بجوارها فتمد يدها فى أول إشــارة منها تنم على أنها ماتزال على قيد الحياة فترخى عليها ملابسها وتواصل نومها .

***



يعود حامد فى أحد الأيام حاملاً مرآة كبيرة بدلا من تلك التى حطمتها ، يناديها مخبرا إياها أنه قد اشترى مرآة جديدة ويدعوها ـــ متهكما ـ للنظر إلى هيئتها فيها .

كان أول مافعلته فيما بعد أن عمدت إلى الستار القديم وغطتها به ليتعجب هو من أمرها وإصرارها الغريب على تغطية كل المرايا التى بالبيت أو تحطيمها .

فيسألها : لماذا تكرهين المرايا هكذا ..؟

يسحب الستار من علي المرآة ويقبض على ذراعها جاذبا إياها ليجعلها تقف تماما فى مواجهتها قائلا :

ـــ انظرى إليكِ ... انظرى كم صارت هيئتك رثة .. أهذا ماتتحا شين النظر إليه ؟

دارت بها الأرض وترنحت وكادت أن تهوى على الأرض لولا أنه أمسك بها ، خطا بها خطوات حتى أجلسها على أحد المقاعد وسألها عما بها فأجابته بأنها تشعر بداور ، يضحك معلقا بأنها صدمت فقط من رؤيتها لنفسها ، أسندت رأسها بيدها وأمالتها قليلا للخلف ، شعر بجدية ماتدعيه وذهب يستدعى طبيبا ، فحصها الطبيب وأخبره أنها بخير وأن هذا الدوار

إنما هو عرض طبيعى من أعراض الحمل ثم هنأ هما وخرج يتبعه حامد الذى بدت عليه علامات الفرح بينما اغتم وجهها كثيرا لهذا الخبر الذى لم تكن تتوقعه خصوصا بعد ولادتها الأخيرة « القيصرية » وما حدث أثناءها من مضاعفات أخبرها الطبيب بعدها أن نسبة حدوث الحمل فى المستقبل قد تكون معدومة .

لكنه حدث بعد ست سنوات وعدة متابعات مع بعض الأطباء بإلحاح من حامد الذى كان يرغب بشدة فى إنجاب ولد ذكر .

يدخل اليها ليهنأها ويطلب منها أن تستريح ولا تقوم بأى مجهود ويسرع إلى الهاتف ليزف الخبر السعيد إلى عمه وزوجة عمه .

حمل جديد يا حياة ... ؟

مخلوق تخلق فى رحمك قذفه حامد فى أحشائك ذات ليلة تخليت له فيها عن جسدك مرغمة لتنوئي بحمل فوق أحمالك القديمة لتزداد قيودك قيدا جديدا وتغوص أقدامك أكثر فى قهرك الموحل .

حمل جديد قُذف فى رحمى كرها لأحمله كرها وأضعه كرها ، ولبد تخلق من صمتى وقهر إرادتى قبل أن يتخلق من دمى ..

صــارت أكثر صــمتا وحزنا عن ذى قبل .. ازداد شــحوبها ونحولها برغم أن حامد بدأ يتحامل على نفسه قدر الإمكان فأصبح يساعدها ـ على غير عادته ـ فى بعض أعمال البيت التى قد تثقل عليها حرصا منه على استمرار الحمل الذى لم تكن هى حريصة عليه ولا على نفسها .

تعرف ســعاد بخبر حملها وتبارك لها وتســتأذنها فى زيارتها ذاك أنها افتقدتها كثيرا فى الشهور الأخيرة التى لم تتوا صلا فيها إلا عبر الهاتف ، تعرض عليها حياة زيارتها فتجيبها ســعاد متحفظة بأنها تخشــى أن تكون زيارتها ســببا فى إزعاج زوجها ، فتؤكد لها حياة أن هذا لن يحدث وتدعوها للزيارة فى أى وقت .

تستوضح سعاد :

ـ حتى لو كان حامد موجودا بالبيت ؟

فتؤكد لها بنبرة واثقة :

ـ حتى لو كان حامد بالبيت ثم تردف :

لقد تغيرت معاملته لى وأصبح عطوفا علىّ ، حريصا على راحتى .

لم يمنع هذا سعاد من تخير وقت مناسب للزيارة .

قابلتها حياة بحفاوة بالغة بادلتها إياهها سـعاد بابتسـامة كبيرة بدت على وجهها ثم ما لبثت تلك الابتسامة أن تحولت إلى نظرة إشفاق :

- يااااه يا حياة .. ما كل هذا الذبول ؟

- أى ذبول ..؟

- الذبول الذى يبدو على وجهك .

- لايعنينى ذبول وجهى .

- فما الذى يعينك إذن ..؟

- ذبول روحى ، أشعر أنى قريبة من الموت .

وهنا اقتربت سعاد منها وهى تربت على كتفها :

- إن شاء الله ستضعين حملك وستكونين بخير ..

- الأحمال كثيرة وثقيلة .. أثقل من أن أتحملها .

- ترفقى بنفسك ، أعرف أنك لاتحبين حامد ولست سعيدة معه وأنا مثلك لا أحب صابر ولست سعيدة معه ولكن الحياة ليست محصورة فيهما فهناك أشياء أخرى تستحق أن نعيش من أجلها .

- آه يا سعاد لو تعلمين مابى .

- تكلمى ياحبيبتى ...

حياة وقد ألقت برأسها على صدر صديقتها وأخذت فى البكاء ..

- ما بكِ يا حياة .. أهناك مايسوؤك إلى هذا الحد ؟

تمسح دموعها براحة يدها وتتنهد تنهيدة حارة :

لم أشــعر يوما بوجودى ، أثناء طفولتى كان أبى فظا كحامد ، لم تكن أمى تجرؤ على معارضته حتى عندما أسلمنى بيده ليد حامد ، كنت قد أســررت لها بعدم رغبتى فيه فالتزمتْ الصــمت وأمرتنى بالتزامه متحاشية مخالفة أبى وإغضابه صمتُ فكان الصمت دليل الرضا .

لم أكن أكره حامد ولم أكن أحبه ، كان شــعورى نحوه كشــعورى نحو أبى مزيجا من الهيبة والخوف ، وقتها تمنيت أن يكون لى بيت جديد وحياة مســتقلة ، أخبرتنى أمى بأن حامد يحبنى ، صــدقتها أو بالأدق كنت أريد أن أصدقها كما صدقت أن حياتى معه ستكون مختلفة .

كنت أسترق مشاهدة الأفلام الرومانسية التى كان أبى يعنفنى بشدة عندما يرانى أشاهدها ويغلق التلفاز موبخا أمى ومتهما إياها بالتسيب فى تربيتنا و..

فأخلو إلى نفســى وأغمض عينىً وأهيم فى أحلامى التى لا يســع أبى ولا أمى أن يراقبانى فيها ، أتخيل نفســى الفتاة التى يحبها البطل ويهمس لها بكلمات الحب والشــوق والغزل ، حتى كانت ليلتى الأولى مع حامد ، ليلة العمر كما يقولون ...

كم رسـمت تلك الليلة فى خيالى فكنت أراها من خلف غلالة بيضـاء وأضـواء سـاطعة حجبت عنى رؤية تلك الظلال السـوداء لأعيش بعدها فى كابوس أحسه أطول من أيامى .

حملت بحورية ، كيان تشـكل من دمنا نحن الاثنين فكانت ملامحها خليطا من ملامحنا أنا وهو ، جاءت لتؤكد لى بشـكل عملى أنه قد تم الدمج الذى يـ ستحيل بعده الانفـصال ، تأتى بعدها حـ سناء على نفس الهيئة لأوقن أنه قد أحيط بى ، هو زوجى وأبو بناتى ، وابن عمى الذى يعتبره أبى الولد الذى لم ينجبه ، خطبنى له وأنا فى السادسة عشر وعقب انتهائى من امتحانات الثانوية العامة أصـرّ أبى على إتمام الزواج أولا ثم ترك لحامد حرية اتخاذ القرار بشأن مواصلة دراستى بعد الزواج ، وافق حامد بعد اسـتعطاف وتوسـل على إلتحاقى بالجامعة بعد أن حدد لى الكلية التى سأنتسب لها .

ماكنت أحب مجال دراسـتى لكن هذا ما أراده حامد ، ماكنت أحب أن أتزوج حامد لكن هذا ما أراده أبى .. أردت أن أستمر فى عملى لكن حامد أراد غير هذا .

أردت أن أطلْق منه وكان يجب أن أعلم أنه لا إرادة لى ، فقد وئدت إرادتى قبل أن تولد .

- هونى عليك يا حياة ، لا يجب أن تهملى صـــحتك وحيا تك بهذا الشكل ، تمسكى بالأمل دائما .

- أى أمل قد يكون لدى ؟

- الأمل وإن خبا نوره فإنه موجود مادامت الحياة ، صـــدقينى ، أنا ألمحه كل صــباح عندما أصـعد إلى السـطح لأروى ماغرســته بيدى فأجد زهرة جديدة قد تفتحت فأقول فى نفسى :

لم تكن هنا زهرة بالأمس .. !

أتحسسها بيدى فأقرأ فى نضارة أوراقها وروعة ألوانها رسالة جديدة بعثت بها إلىً الحياة لتبعث فى نفسى أملا جديدا فأحتمل اليوم أملا فى الغد .

تنتهى سعاد من حديثها لتجد حياة وقد ألقت ببصرها صوب الشرفة وكأنها تتأمل شيئا ما ، تسألها :

إلام تنظرين ..؟ فتجيب على سؤالها بسؤال :

- ما أخبار عصفوريك ..؟ ألم يبرحا قفصهما بعد ؟

- مالذى ذكرك بهما الآن ؟

– لا أدرى مجرد سؤال خطر على بالى وأنا أنظر من الشرفة .

– كما هما فى القفص .

– كأنى أراهما أمامى الآن وهما يرنوان إلى السماء يودان أن يطيران ..

– سبق وقد فتحت لهما باب القفص لكنهما لم يحاولا الخروج .

– لكن باب القفص لم يفتح لى فى أى يوم .

ـ حاولى ..

ـــــ حاولت مرة فكانت محاولتى كنقرات عصفور صغير على جزع شجرة لم يشعر به أحد .

– حاولى ثانية وثالثة حتى تستحيل نقراتك طرقات قوية .

– إذا أمكننى مواجهة حامد وأبى والناس فهل سيمكننى مواجهة عيون بنتىَّ وما سوف يلحق بهما ؟

وإذا أمكننى احتواؤهما فكيف سأواجه بهما الحياة وحدى ؟

صدقينى لا أمل لى ..

– مازالت لديك حياتك التى يجب أن تحرصى عليها إن لم يكن لأجلك فليكن لأجل بنتيك اللتين تحتاجان لوجودك معهما .

حياة وقد تعلق بصرها بصورة لطفلتيهما معلقة على الحائط :

- لعل هذا ما يجعلنى أنهض من فراشى فى الصباح .

تأخذ نفسا عميقا وتنظر إلى صديقتها :

ماذا عنك أنت طمأنينى عليك .

- أنا كما أنا لاجديد غير أنى سـأواصـل النقر على رأس صـابر حتى أقض مضـجعه ويطلق صـراحى وإن لم يسـتجب ويطلقنى سـأطلق نفسى منه .

- كيف وهل هذا ممكن ..؟

- ممكن مع قانون الخلع الجديد .

- سمعت أن هذا القانون الجديد ينصف المرأة ويرفع الظلم عنها .

- هو لم يرفع الظلم عنها بقدر مايوقع الظلم عليها لكن ليس أمامى طريق آخر يمكننى السير فيه لنيل حريتى .

- كيف لم يرفع الظلم عن المرأة .. أليس هذا القانون هو الذى يتيح للمرأة إمكانية تطليق نفسها إذا شاءت حتى بدون ذكر أسباب رغبتها فى الطلاق ؟

- نعم هو ماذكرت ، ولكنه كما قلت لك لم يرفع الظلم عن المرأة بقدر ما أوقع الظلم عليها .

- كيف هذا ..؟

ــ لأن الأمر يستغرق شهورا عديدة وقضية ومحاميا قد لاتجد المرأة ماتدفعه إليه خـصو صا بعد أن تجد نفـسها مـضطرة للتنازل عن كافة حقوقها الشـرعية له وهذا ماشـجع بعض الرجال على اسـتغلال هذا القانون لصالحهم ، عندما يريد الرجل تطليق زوجته بدون أن يعطيها أيا من حقوقها فإنه يدفعها بطول إجراءات التقاضى فى قضايا الطلاق العادية إلى التنازل عن كل حقوقها وهنا تجد المرأة نفسـها مضـطرة للقبول حتى تتخلص من حياة لا ترغبها .

- كنت أظن أن الخلع هذا أمر سهل ولا يستغرق وقتا ولا مالا ولكنه على كل حال أهون من قضايا الطلاق العادية التى تستغرق سنوات فى المحاكم والتى قد لاتحصل فيها المرأة فى نهاية المطاف على شئ .

- أتساءل لماذا لايمر الرجل بتلك الإجراءات عندما يقرر هدم البيت بكلمة يطلقها فى وجه زوجته ؟

- ماذا تقصدين ..؟

- أقصـد أن المرأة إذا أرادت الحصـول على الطلاق فإنها تضـطر إلى اللجوء للقـضاء والرجل إذا أراد أن يطلق فما عليه سوى أن يقول: « أنتِ طالق »

ولا يكون مضـطرا مثلها للجوء للقضـاء والسـير فى إجراءات طويلة ومعقدة قد تضطرها فى بعض الأحيان لاستخدام طرق ملتوية

واللجوء إلى ادعاءات كاذبة كما يحدث كثيرا فى الواقع .

- أتطالبين أن يلزم الرجل باللجوء للقضاء عندما يريد تطليق زوجته كما تفعل النساء ..؟

- ولم لا ... ؟

أليس هناك من يطلق لفظة الطلاق على زوجته لمجرد أنها أغضبته أو خرجت بدون إذنه ؟ لذا عندما يكون مضطرا للوقوف أمام القاضى وإبداء الأسباب التى تدعوه لتطليق زوجته سيقلل هذا من الاستهانة بلفظة الطلاق لأتفه الأسباب وبهذا يقلل من نسبة وقوعه .

- أتريدين أن يسلب هذا الحق (الطلاق) من الرجل ..؟

- أو أن يعطى نفس الحق للمرأة ..

- كيف ..؟

- بأن يكون لها الحق فى أن تقول له أنا طالق منك والذهاب إلى المأذون وتحرير وثيقة طلاق يُعلم بها الزوج وتتنازل بمقتضاها عن كافة حقوقها كما ينص قانون الخلع وتكون بذلك قد تجنبت إهدار وقتها ومالها واللجوء للقضاء الذى لا يسعفها .

- لا يا سعاد هدم البيوت لا يجب أن يكون بهذه السهولة .

- أنا أقصد من كلامى تطبيق مبدأ المساواة ، سواء فى السهولة أو فى الصعوبة أليست المساواة فى الظلم عدلا ؟

الأمر بالنسبة لى أشبه بشخصين يعيشان فى شقة واحدة أحدهما يملك مفتاحا بينما الثانى لا يملك نسخة من هذا المفتاح ويكون بذلك غير قادرعلى الدخول أو الخروج إلا إذا رغب الأول .

- إن ما تطلبينه موجود بالفعل فى الاسلام وليس هناك مانع شرعى فى أن تكون العصمة فى يد المرأة .

ـــ المانع ليس فى الشــرع ولكن فى العقول التى تطبق الشــرع ، ألا تلاحظين أن من نقل الشــرع وفســره رجل وأن من ســن القوانين وطبقها رجل ؟!

- إذن فليس أمامنا حل سوى الرضوخ لهذا الرجل .

- أحيانا أتمنى أن أهرب من أى رجل ، من صابر ومن أبى ومن أخى ..

- إلى أين لأهرب معك ؟

- إلى أى مكان لا يتبعنى فيه الخوف ، مكان أجد فيه نفســى وأشـعر فيه أنى كائن حر يمكننى أن أعيش فيه كما أريد دون خوف أو قيد .

- الخوف لا يتبعنا يا سعاد ، إنه يعيش فى داخلنا ، وُلد معنا وكبر معنا والدليل على هذا أنك لن تذهبى إلى أى مكان ولن أذهب أنا أيضــا وسنبقى مثل عصفوريك .

***



شـعرت حياة بشـئ من الارتياح بعد هذا الحديث الطويل مع سـعاد بالرغم من أنها لم تفض فيه بكل ما يعتمل فى صــدرها ، كانت تود لو تبوح بسرها وتعلن عن حبها ، تقول لنفسها معاتبة :

لماذا لم أخبرها بما أشعر به تجاه أحمد ؟ كانت ستتفهم مشاعرى ولم تكن لتسيء الظن بى ولا أظنها ستبوح بسرى أبدا ،

ولكن ما الفائدة .. ماذا كنت ستجنين من إخبارها ..؟

ليتنى فقط سألتها عن أخباره .

كانت ستلاحظ .

إنه مجرد سؤال عادى عن زميل لنا ..

لم يعد زميلا ، انقطعت علاقتك بالعمل معه من

عدة شهور .

كانت وعدتنى فيما سبق أنها ستأتى لى برقم هاتفه ولم أسألها عنه ..

لقد مرَّ وقت طويل على هذا .. لم يكن من اللائق سؤالك عنه الآن ، ولو كنت سألتها وأعطتك رقم هاتفه ماذا كنت ستفعلين ..؟ هل يجدر بكِ الاتصال به ..؟ وماذا ستقولين له بعد مرور كل هذا الوقت ؟

أتراه يهتم لأمرك أم أن خيالك صور لك هذا ؟

ربما لا يكاد يتذكرك ، حتى ولو كان يبادلك نفس الشعور كما تتمنين .

ماذا بعد ؟

سيكون لديَ الأمل ..

أى أمل أيتها البائسة ؟

تواصل حياة شرودها متسائلة :

ماذا لو كان ما تمنت سعاد أن يحدث قد حدث بالفعل وأنه يوجد قانون يمكّننى من النهوض حالا والذهاب إلى المأذون وتحرير وثيقة طلاقى من حامد دون موافقته هل كنت سأذهب فعلا وأوقع على تلك الوثيقة وأحرر رقبتى من قيد حامد الغليظ ..؟

هل سأكون قادرة على فعل ذلك ؟ أم أن هناك قيودا أخرى أكثر غلظة ، قيودا تعجز كل الوثائق عن تحريرى منها ؟

تنتبه من شرودها على صوت اصطفاق الباب ، إنه حامد يعلن عن عودته ملقيا عليها السلام . متسائلا بعد أن لاحظ وجود كوبين فارغين أمامها عمن كان يجالسها فتخبره أنها سعاد ، يمضى ولا يعلق .

كظل أ سود تراءى لها جنينها حين شاهدته لأول مرة على شا شة جهاز الأشعة التلفزيونية فطلبت من الطبيب أن يسمعها دقات قلبه وما إن أسمعها إياها حتى شعرت بدغدغة فى قلبها لتسأله إن كان ولدا أم بنتا ؟

يجيبها متسائلا : ماذا تريدين ؟

فيرد حامد مسرعا : إن شاء الله حسن على اسم والدى .

تنكسر نظرتها ولا تعقب ، يخبرهما الطبيب أنه لم يتضح له بعد جنس الجنين ثم يلتفت إلى الأم منبها :

عليك أن تهتمى بطعامك وتنتظمى فى تناول الدواء الذى سأقره لك الآن .

يعقب حامد :

قل لها يادكتور، إنها لا تأكل كما ينبغى لفرد واحد فما بالك أنها تأكل لها ولولدى ، أريده أن يولد بصحة جيدة .

كان الطبيب قد انتهى من كتابة الروشتة التى تناولها منه حامد ودسها فى جيبه ثم أمسك بيدها وهى تهبط من على سرير الكشف (الشاذلونج) ، وحين وقفت انحنى مقربا الحذاء لقدميها حتى تتمكن من انتعاله بسهولة ، خرجا من غرفة الكشف وهو يحيط كتفيها بذراعه فى حنو وأثناء عبورهما غرفة الاستقبال حيث بعض النسوة جالسات ينتظرن دورهن فى الدخول إلى غرفة الكشف ، همست إحداهن فى أذن جارتها :

ـــ أرأيت ...؟ أين زوجى ليرى ويتعلم كيف يكون الأزواج مع زوجاتهن ؟

تعود إلى منزلها تحمل فى رحمها قلبا ينبض وفى قلبها جنينا ينمو لاتدرى كيف جاء ولا كيف نما لكنها تشعر به يكبر يوما بعد يوم حتى لكأنها تخشى أن يفتضح أمرها به فهل حان وقت المخاض ؟

تنظر تارة إليه وهو منهمك فى إلتهام طعامه وتارة إلى حورية وحسناء .

تتأمل ملامحهما :

ـ حسناء لها نفس أنف أبيها ولون عينىّ ، حورية تكتب بيدها اليسرى مثل أبيها ، هى لاتشبهنى تماما وإن كان لها نفس استدارة وجهى ولون بشرتى .

تنتقل عيناها بين أفراد أسرتها وهم يتناولون طعامهم ثم تتوقف لحظة كأنما تلتقط لهم صورة عائلية ، حامد فى المنتصف عن يمينه حورية وعن شماله حسناء ..

ولسان حالها يقول : لايمكن أن تكتمل الصورة بدونه .

يلاحظ شرودها ، يسألها : لماذا لا تأكلين يا أم حسن ؟

تنتبه على صوته :

ـ أكلت ما يكفى .

ــــ ما يكفى لك أم لابنى ؟ يجب أن تأكلى جيدا ثم يمد يده ويناولها قطعة لحم ويقربها ليضعها فى فمها فتضحك البنتان فيما تمضغها هى على مضض .

بعد انتهائه من الغداء قام إلى الحمام ليتوضأ استعدادا لصلاة العصر فيما قامت هى لرفع أطباق الغذاء وغسلها وبينما هى كذلك إذ سمعت منادى القرية عبر مكبر الصوت يعلن عن وفاة أحد الأشخاص .

لم تسمع اسم المتوفى جيدا ، طلبت من حورية خفض صوت التلفاز لتتمكن من السماع كان حامد قد أنهى وضوءه وخرج ، تسأله :

ـ هل سمعت المنادى ؟

ـ نعم إنه الحاج خليل موافى .

ـ أبو سعاد .. ؟

يرد مؤكدا :

ـ نعم هو .

تستأذنه فى الذهاب لعزاء صديقتها فيأذن لها ويؤكد عليها بأن تحترس لحملها ولا تتأخر ..

تذهب مسرعة إلى بيت والد صديقتها لتكون إلى جانبها تواسيها وتشد من أزرها .

حزنت سعاد لفقد أبيها وحزنت أكثر لمرض أمها الشديد والمفاجئ عقب وفاة رجلها الذى قضـــت معه جل عمرها كما تقول بعين دامعة وقلب منفطر لمن حولها فلم تمض شهور قليلة حتى لحقت الزوجة المكلومة برجلها فى مثواه الأخير ..

عادت سعاد بعد وفاة والديها إلى بيتها حزينة لفقدهما فيما ظلت حياة تتردد عليها تواسيها فى مصابها الذى كانت تخبو جذوته مع الأيام .





برفقة حامد ذهبت حياة لمتابعة حملها مع الطبيب الذى ما إن أخبرهما أن الجنين الآن فى شهره الخامس حتى بادره حامد وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة أمل إن كان ذكرا ؟

تلك الابتسامة ما لبثت أن خبت عقب رد الطبيب مباشرة فتجهم وجهه ،

لاحظت حياة كما لاحظ الطبيب ذلك فأردف قائلا :

ـــ إنها رزق من عند الله المهم أن نعتنى الآن بصحة الأم ، لم يحاول حامد أن يخفى حزنه وخيبة أمله ، أما هى فقد شعرت بالمسئولية تجاه بناتها وأنها يجب أن تعيش لأجلهن خاصة أن تلميحاته عن رغبته فى إنجاب الولد الذى سيحمل اسمه واسم عائلته بدأت تتزايد فى الفترة الأخيرة ، كما أن معاملته لها قد تغيرت تماما حيث عاد إلى سابق عهده معها ،

تنظر إليه وتقول :

كنت أعلم لماذا كنت ودودا معى ، كنت تأمل أنى أحمل ذكرا ..

صارت أكثر حرصا على حياتها عن ذى قبل ، بدأت تهتم بصحتها حتى اقترب موعد وضعها ، أخبرها الطبيب أن وضعية الجنين غير مطمئنة ، تتذكر أنها كانت فى ولادتها الأخيرة بين الحياة والموت .

تتساءل : أستكون تلك المرة بنفس الخطورة وأيهما سيكون أقرب إليها .. الحياة أم الموت ؟

وإن كان الموت فماذا سيكون مصير بناتها ؟

حدد الطبيب موعدا لإجراءعملية ولادة قيصيرية..

تستيقظ مبكرة ، تجهز حاجياتها فى حقيبة صغيرة بها كل ماقد تحتاج إليه ، تجلس تنتظر وصول أمها التى سترافقها فيما تتأمل صغيرتيها ..

حورية ترسم ، حسناء تلهو بدميتها ، تصفف شعرها وتلبسها حذاءها الصغير وتسألها فى براءة مقلدة أمها : هل يؤلمك الحذاء ؟

تناديانهما ، تطيل النظر إليهما ، تضمهما إلى صدرها ، تمطرهما بقبلات حانية وقد دمعت عيناها ، تسألها حورية :

ـ لماذا تبكين يا ماما ..؟

تمسح دموعها براحة يدها وتقول لها : أريدك أن تحبى أختك الصغيرة وتعطفى عليها ، ثم تضمهما معا إلى صدرها بقوة وكأنها تود لو تعيدهما إلى داخلها ثانية وهى تحاول جاهدة كبح دموعها حتى لاتنزعجا .

بعدما انتهى حامد من ارتداء ملابسه وارتشاف شايه الذى كانت قد أعدته له منذ دقائق ناداها لينبهها بأن الوقت قد حان للذهاب .

تتلقى اتصالا هاتفيا من سعاد ينتهى بعد دقائق قليلة تستعلم فيه سعاد عن عنوان المستشفى حتى تتمكن من اللحاق بها والاطمئنان عليها .

تحضر الأم ويذهب الجميع إلى المستشفى .

يمر الوقت بطيئا حتى جاء صوت بكاء الطفلة الوليدة ليخفف قليلا من وطأة القلق المخيم على وجوه الجميع .

يخرج الطبيب طالبا من الزوج التوقيع بالموافقة على عملية استئصال الرحم من أجل إنقاذ حياة الأم لأنها الآن بحالة حرجة ، يوقع الزوج فيما فاضـــت عينا الأم بالدموع وهى تدعو الله بأن ينجى ابنتها ، أما سـعاد فقد كانت جالسـة على أحد المقاعد مسـندة رأسـها بين يديها وقد دمعت عيناها فى صمت ، فيما ذهب حامد إلى خزينة المستشفى .

تفتح عينيها لترى أمها وحامد وسـعاد يجلسـون حول سـريرها يهنئونها على سـلامتها ، تحاول أن تسـتوعب فكرة أنها وضـعت وأنها مازالت على قيد الحياة ..

ثم تغمض عينيها ثانية .

يطمئنهم الطبيب أنها بخير ..

تعاود فتح عينيها ثانية .. تسأل عن مولودتها ، تتناول أمها لفافة صغيرة تحوى وليدتها ، تدنيها منها ، تتأملها حياة قائلة : أمل ... إنها أمل ياحامد .

يهزرأسه فى إشارة منه على الموافقة .

تعود إلى بيتها تحمل وليدتها فى حنو ، بينما يعود هو عابسا ، صامتا .

ولم تمض سـوى عدة شـهور حتى أخبرها برغبته فى إنجاب الولد ، اندهشت من رغبته تلك متسائلة :

ـ ألا تعلم أن رحمى قد استؤصل وأنه لم يعد يمكننى الإنجاب ؟!

- لايمكنك أنت .

- ماذا تقصد .؟

- أقصد أنه يمكننى أنا .

- وضح كلامك ياحامد .

- كلامى واضح .

يصمت برهة ثم يشيح ببصره عنها وهو يقول :

ـ سأتزوج .

- تتزوج !

- نعم أتزوج ، ليس عيبا ولا حراما ..

- إن فعلت هذا تطلقنى .

- لن أطلقك وسأتزوج ، هذا حقى .

- وأنا .. أين حقى ؟

- سـأعطيك كل حقوقك الشـرعية وسـأعدل بينك وبين الزوجة الجديدة .

- وإن كنت لا أقبل أن تأتى لى بضرة ؟

- عليك أن تقبلى لأجل بناتك .

قاطع حوارهما بكاء أمل فتركته وذهبت لإرضاعها .

بقدر ما انزعجت وغضبت من مجرد الفكرة إلا أنها لمحت شعاعا خافتا قد يضيئ لها طريق الخروج من سرداب حياتها المظلم .

تفكر فيما بينها وبين نفسها انه إذا فعل فعلته تلك وتزوج فإن هذا سيكون سببا كافيا يدعم موقفها أمام أهلها لطلب الطلاق وأن وجود زوجة ثانية له قد يجعله يسارع بالاستجابة لرغبتها تلك ويطلقها .

تلك الأفكار التى راودتها كانت سرها الخاص الذى لم تُطلع عليه أحدا ، قررت أن تظل على موقفها الرافض برغم ثقتها من أن رفضها هذا لن يثنى حامد عن تنفيذ ما انتوى فعله خصوصا وأنها علمت أنه بالفعل بدأ يخطو خطواته الأولى ويبحث عن زوجة ثانية .

عندما أخبرت أمها بعزمه على الزواج من ثانية ثارت الأم وغضبت لأجل ابنتها على عكس موقف الأب الذى التزم الصمت .

أما حامد فلم يضع الوقت بعدما ضاع الأمل فبدأ فى تجهيز الطابق الثانى وتهيئته لاستقبال العروس الجديدة التى فيما يبدو كان قد وقع اختياره عليها منذ حين ..

قابلت حياة مايحدث من زوجها بصمت العاجز فيما ظل شعاع الأمل الذى كان قد بدا لها يخبو شيئا فشيئا كلما حاصرها ضباب المستقبل وتكالبت عليها الأسئلة وأحبطتها الأجوبة .

أين ستذهب بثلاث فتيات ؟ لن يسعها بيت أبيها وهو المبارك صمتا زواج ابن أخيه ؟

وماذا إذا أنجب حامد من الزوجة الجديدة ذلك الولد المنتظر ..؟

هل تعود بمفردها إلى بيت أبيها كما قدمت بمفردها وتترك صغيراتها لزوجة أب قد لاتحسن معاملتهن ؟

هل يطاوعها قلبها على فعل ذلك ؟

كل الخيارات مُرة وكل الحلول موجعة ..

وبينما هى فى دوامتها تتجرع هذا المرار وذاك الوجع كان حا مد يرتشف من شهد اللذة فى أحضان العروس الجديدة .

كانت تسمع وقع أقدام مطارداتهم الغرامية من آن لآخر ، لم تطالب بحقها الذى لم تحصل عليه كزوجة منذ شهور لأنها إن لم يمنعها عزوفها عنه فسيمنعها كبرياؤها كما أخبرت سعاد التى كانت تنصحها بطلب الطلاق فى كل مرة لتخبرها حياة أنها نسيت أو بمعنى أدق ـ تناست ـ مشاعرها كامرأة .

فهل حقا تصدق حياة نفسها فيما تقول ؟ أم أنها فقط تحاول تصديق مايجب عليها أن تصدقه ؟

هل حقا خبت رغباتها كأنثى بعد أن تحطمت مشاعرها كإنسانة على يد جلمود بشرى اسمه حامد والذى كثيرا ماكان يتهمها بالبرود فذهب متخفيا خلف ستار ظاهره الرغبة فى إنجاب الولد وباطنه الرغبة فى امرأة تشبع نهمه فى ممارسة اللذة بطريقة مشروعة ؟ وإن كان هذا حقه فأين حقها ؟

تلك حياة تدعى أنها نسيت ، أما سعاد فلم تنس بعد أنها امرأة بلا رجل وبلا ولد وبلا حب ، تقول فى نفسها :

أهكذا تمضى بى السنون ما بين صمت وكآبة ؟

تقول فى نفسها :

الحياة غالية أغلى من أن أفرط فيها بتلك السهولة .

انتفضت فجأة تمد يدها تهز كتف صابر الذى عاد يغط فى نومه كسابق عهده ، تهزه بقوة .. يفرك عينيه بظهر راحتيه قائلا بصوت يتخلله التثاؤب :

ـ ماذا تريدين ..؟

- أريد أن أتحدث معك .

- الآن ..؟

- نعم الآن .

- ماذا حدث ؟

قالها وهو يعتدل نصف جالس ..

– لايهمك الذى حدث ، يهمك الذى سيحدث .

– وما الذى سيحدث ..؟

– ستطلقنى .

اعتدل جالسا :

– أطلقك .. !

– نعم تطلقنى .

– وإن قلت لا ..

– لايعنينى ماذا ستقول .

وماذا يعنيك إذن ؟

يعنينى ما سأفعل ، سأطلق نفسى منك .

ـ كيف ؟

ـ سأخلعك ..

ـ ماذا تقولين !

ـ أقول ما سمعت .

– نامى الليلة وغدا يكون لنا حديث آخر.

ـ لن يكون لى معك « غدا » ياصابر، يجب أن تفهم هذا جيدا .

– ماذا حدث الآن لكل هذا ؟

– أنت تعرف جيدا لماذا أريد الطلاق فدع الأمر يمر بسـلام وثق أن هذا قرار لارجعة فيه .

– غدا سيكون لى حديث مع أخيك .

– وما شأن أخى بما بيننا ..؟

– هو ولى أمرك الآن .

– أنا لسـت قاصـرا ولن أسـمح له أو لك بإرغامى على حياة لا أريدها ، هل يمكنك أن تفسرلى معنى حياتنا معا ، ماالذى يجمع بيننا ؟

– أنا زوجك وأنت زوجتى .

– الحياة الزوجية لها مقومات وتلك لا أظنها قائمة فيما بيننا .

– أتعودين لمثل هذا الكلام ، تتهميننى بالضعف ؟

– أنت أقوى الرجال إن كان هذا يرضيك ، لكنه لايرضينى .

– المرأة الخصبة ترتوى من أقل قطرة لكنك دوما تطلبين المزيد .

ـ أنا امرأة شبقة ولا أصلح لك ، طلقنى إذن ..

– أهذا آخر مالديك ؟

- بقى شئ أخير .

- ماهو ..؟

- ليكن تسريح بإحسان ، أريدك أن تطلقنى بهدوء ، فكر فى كلامى وأنا فى انتظار قسيمة طلاقى فى بيت أبى .

لم ينم صابر فى تلك الليلة وكذا لم تنم سعاد ، ظلت جالسة حتى الصباح تفكر فيما ستكون عليه حياتها القادمة ، بينما ظل هو يحملق فى لاشئ ، لم يحركا ساكنا حتى أشرقت الشمس ومضى كل فى طريقه دون أن ينطق أحدهما بكلمة .

تركت خلفها سنوات لم تأسف عليها محاولة إنقاذ ما تبقى من عمرها ، عادت إلى بيت أبيها لا تحمل سوى رغبة فى الحياة وعصفورين أخضرين وبعض أصص الزهر تاركة كل أثاث شقتها متنازلة عن كافة حقوقها المادية كزوجة متشبثة بكل حقوقها المعنوية كإنسانة لها الحق فى الحياة والحب .

لم تخش ثورة أخيها ولم يثنها غضبه ولالومه ولااتهاماته لها بالاستهتار بقداسة الزواج والطلاق وعدم التعقل و..

فما كان منها إلا أن قالت له :

ـــ هذه حياتى أنا وليست حياتك أنت وأنا لست قاصرا بل إنى أكبرك بعامين ولن أسمح لأحد بإرغامى على حياة لا أريدها ..

شعر أخوها أنه أمام امرأة أخرى طالما كان يستشعر وجودها فى أخته من قبل ، امرأة قوية ، متمردة ، لن تساعده سلطته كأخ فى قمعها خصوصا بعد وفاة والديها فما كان منه إلا أن قال لها :

ـ أنت حرة ولكن لا شأن لى بك فيما بعد .

طلبت منه مفتاح شقة والديها المغلقة منذ وفاة والدتها ، فأعطاها إياه على مضض .

رتبت أشياءها فى بيت والدها ، وزعت أصص الزهر بعناية ، تحيرت قليلا فى اختيار المكان الذى ستضع فيه قفص عصفوريها ليقع اختيارها على مكان قرب الشرفة الشرقية علقت القفص وظلت تراقبهما ، تحسهما سعيدين فى مكانهما الجديد ، ربما كانا بالفعل كذلك ، وربما لأنها كانت سعيدة فانعكس إحساسها على كل ماحولها فالزهور صارت أكثر تفتحا وأرق أريجا .

بعد أن أزالت الغبار عن قطع الأثاث وغيرت الملاءات ، أخذت حماما وخرجت تصفف شعرها ، شعرت بأن الهواء منعش ورقيق ، إنه هواء معبأ بنسيم الحرية .

نظرت فى ساعة يدها وجدت أن الوقت مناسب لمهاتفة حياة لتخبرها بما حدث لها ومعها وتعرض عليها زيارتها فى بيتها الجديد ، وعدتها بالزيارة فى أقرب فرصة .

ولم يمض الكثير حتى حملت حياة صغيرتها وذهبت لزيارة صديقتها التى ماإن فتحت لها الباب حتى تلقتها بعناق ودود ثم حملت عنها الصغيرة ودعتها للدخول ، جلستا متجاورتين ، على وجه إحداهن بريق ابتسامة لم ينبعث من شفتيها بقدر ما انبعث من أعماقها ، بريق لم تواره غمامة الحزن على وجه حياة التى لاحظت انتشاء صديقتها فسألتها :

- أراك سعيدة ؟

فتداعبها :

ـ ترينني سعيدة أم سعاد .؟

- أراك سعاد التى أعرفها .

- لأنى تركت صابر وعدت إلى نفسى .

- هل وافق على الطلاق ؟

- ليس أمامه إلا أن يوافق إن عاجلا أو آجلا .

- وأخوكِ ماذا فعل ..؟

- ثار وغضب معلنا عدم موافقته على قرار الطلاق .

- وماذا فعلت معه ..؟

- تمسكت بموقفى وواجهته بأنه لايحق له إرغامى على الاستمرار فى حياة لا أرغبها .

- وهل اقتنع بوجهة نظرك ؟

- لا أظن ولكن على أى حال فقد أعطانى مفتاح شقة أبى .

- هكذا ببساطة ..؟

ـ لم يكن أمامه إلا أن يقبل .

- المهم أنى أراك بحال طيبة ..

- الحمد الله .. طمأنينى عليك ..

- الحمل مازال يؤلمنى

- حمل ماذا يا حياة ؟ هذه أمل بين يديك !

- الحمل الذى أتحدث هنا ...

تقولها وتشير إلى قلبها

تبتسم سعاد وتقبض على يد حياة وتقول لها بنبرة واثقة :

- كل حمل ولا بد له من وضع .

- متى سأضع حملى إذن ..؟

ربما بعد أسابيع أو شهور وربما سنوات المهم أن لحظة الميلاد آتية وعلينا أن نعيش لتلك اللحظة التى نصنع فيها حياة جديدة ، نحن من يصنع الحياة يا حياة ونحن من يضيعها .

- أشعر أن لى الحق أن أعيش فقط ككائن حي يأكل ويشرب ويتناسل وليس لى الحق أن أحيا كإنسانة تحب وتكره ، تقبل وترفض وتثور .

- أعرف أن وجود زو جة أخرى فى حياة زو جك إحســـاس موجع ومهين .

- المـ شكلة ليـ ست فى وجود ضرة بقدر ماهى فى حامد نفـ سه لم أعد أحتمل الحياة معه أكثر من هذا ، أفكر فى طلب الطلاق لكنى أشــفق على بناتى .

تتنهد حياة تنهيدة حارة ثم تنظر إلى رضيعتها وتقول :

ـــ نعم بناتى ، حبات قلبى ، لا أعرف إن كن سببا لـسعادتى أم سببا لشــقائى ، أنا مقيدة بهن ، أعرف أنى لى الحق الآن فى طلب الطلاق ويمكننى مع شئ من الإصرار الحصول عليه ولكن ماذا بعد ..؟

هل أحرمهن من أن يعشن حياة طبيعية بين أبويهما ؟

..هل يمكننى أن أعيش بدونهن وأتركهن يعشن مع زوجة أبيهن ؟
كنت فيما قبل لا أملك الجرأة على طلب الطلاق والآن أنا مضـــارة بزواجه علىَّ ولى الحق فى إعلان تضـــررى هذا فى نظر الناس والقانون ولكننى صرت الآن أكثر عجزا عن ذى قبل خـ صو صا بعدما علمت بحمل ضرتى التى ربما تأتى له بالولد الذى يتمناه وعندئذ ستو ضع بناتى فى خانة مهملة من قِبل حامد كما وُضِعتُ أنا من قبل .

تنهمر بضع دمعات من عينى حياة بينما تربت سعاد على كتفها :

– هونى عليك يا أم أمل ..

محاولة بذلك جعلها تنظر إلى رضـــيعتها ربما يمنحها ذلك شـــيئا من القوة .

ترنو حياة إلى صـــغيرتها ثم تمد يديها لتتناولها من ســـعاد التى كانت مازالت تحملها منذ أن فتحت لها الباب تخرج أحد ثدييها وتقربه إليها ، التقمته الرضيعة بفمها الصغير وأخذت فى امتصاص لبنه .

تواصل حياة حديثها :

– كنت قد تمنيت لو أنها جاءت ذكرا وكذا حورية وحسناء .

تندهش سعاد من قولها :

- أنت التى تقولين ذلك ..!

- نعم .. تمنيت هذا بحق ومن كل قلبى ليس لإرضـاء حامد كما ظننتِ وليس لأنى أفضل البنين على البنات ولكن لأنى لم أكن أريد أن أدفع إلى الحياة بمقهورات مثلى ،

- لا أظن أن الحال سيبقى كما هو ، الدنيا تتغير والأفكار أيضا هناك عقول مستنيرة تؤمن بالمساواة الكاملة ، صدقينى غدا يوم آخر ربما تحظى بناتك بما لم تحظى أنت به .

- أتظنين أن هذا سيحدث ..؟

ـــ هذا يجب أن يحدث ، سألقى بحجرى وألقى بحجرك ولتلق كل امرأة حرمت حقا من حقوقها بحجر فى مياه البحيرة الراكدة .

ـ أى حجر تقصدين ؟

الرفض ، الإصرار ،

ـــ وماذا بعد الرفض ؟ أنا من سيتألم فى كل الحالات صدقينى أنا لا أمل لى .

ـــ لا أحب أن أراك يائسة و ضعيفة هكذا ، إن كان الله قد وهب لك حياة فلا تضيعيها فلن تحصلى على حياة ثانية .

ـ ما أسهل الكلام وما أكثر الأمنيات وما أقسى الواقع !

يسود الصمت برهة تسحب حياة حلمة ثديها من فم رضيعتها لتلقمها الثدى الآخر وهى تضم كفها الصغير فى قبضة يدها وتقبله فى حنو ثم تقول لسعاد وهى تشير إليها :

ـ أرأيت .. ؟ إنها ترضع وهى غافية كم هى جميلة .

ـ أرأيت أنت كم هى ممسكة بثديك بكل قوتها ؟

ـ أى قوة ... إنها ضعيفة لا قوة لها .

ــــ إنها أقوى منى ومنك ..إنها تأخذ بأسباب الحياة وتتشبث بها حتى تنمو وتكبر.

انتهى الحوار وعادت حياة أدراجها تخطو باتجاه البيت الذى ما برح يتراءى لها من بعيد كوحش قد فغر فاه متأهبا للانقضاض عليها .

تضع الصغيرة فى فرا شها برفق ثم تذهب لتتفقد حورية وحسناء فلا تجدهما ، تنادى عليهما ، تعاود النداء ، بينما تهم بفتح باب الشــقة لتسأل عليهما فإذا بها تسمع وقع أقدام صغيرة مهرولة بالطابق الأعلى .

تصــعد الدرج حيث شــقة الزوجة الجديدة وتعاود النداء وبعد عدة نداءات كانت قد اقتربت خلالها من نهاية الدرج كانت حورية قد خرجت إليها فسألتها :

ـ أين أختك ؟

ـ إنها بالداخل يا ماما .

على الفور نادت أختها فأتت هى الأخرى مهرولة ، أمرتهما بالنزول وعادت إلى شقتها وفى إثرها الفتاتان ، تسألهما :

ما الذى دعاكما للصعود ؟

أجابتاها :

ـ بابا طلب منا الصعود لمساعدة ماما « نجوى » فى تنظيف الشقة .

غضبت حياة مستنكرة : ماما من ؟ أنا فقط ماما ، ليست لكما سوى أم واحدة ..

ـ حاضر يا ماما

ـ ولا تصعدا ثانية إلا بإذنى .

ـ حاضر يا ماما ، نظرت الفتاتان إلى بعضهما البعض وبدأتا فى ضحك طفولى .

ـ ما الذى يضحككما ؟

ــــ انظرى ياماما إلى مؤخرة حورية .. لقد انزلقت ونحن ننظف بلاط الحمام .

فقالت حورية بدورها :

ــ وحسناء أيضا يا ماما سقطت بجوارى عندما جاءت لتساعدنى على النهوض.

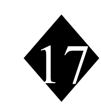
تحسست حياة ملابس بنتيها فوجدتهما مبتلتين فصاحت فيهن غاضبة :

ـ منذ متى وأنتما تنظفان الحمام ؟ إياكما أن تفعلا ذلك ثانية .

لاحظت البنتان نظرة غضب جادة فى عينى أمهما فكفتا عن الضحك ثم أخذتهما الأم لاستبدال ملابسهما المبتلة .

عندما عاد الأب دار بينها وبينه حوار علا خلاله صوت حياة على غير عادتها وانتهى بأن صفق الباب خلفه وصعد الى أعلى .

***



أخيرا رضخ صابر لإرادة سعاد وطلقها بعدما باءت كل محاولاته فى إعادتها بالفشل .

وهاهى الآن قد حصلت على صك حريتها وا ستقلت بحياتها ضاربة عرض الحائط بما قد يقال لها أو عنها فى جلسات النميمة .

صارت أكثر نشاطا وإشراقا ، تلاحظ حياة هذا عليها فتسألها إن كانت لديها نية فى الزواج مستقبلا ؟

ـ نيتى فى الزواج تتوقف على شيء واحد .

ـ ما هو ؟

ـ الحب .

ـ الحب ؟

ـ وماذا سيكون غيره ؟

تتنهد حياة تنهيدة عميقة تلحظها سعاد فتسألها :

ـ ألم تجربى الحب ؟

صمتت حياة لحظة :

ـ الحب لمثلى رفاهية لا أقدر على ثمنها .

ـ الحب ليس رفاهية كما تظنين ، إنه أساس الحياة ، ليتنى أجد من أحب .

ـ وإذا وجدته ؟

ـ سأمسك به .

ـ ومن أين لك بالثقة أن من تحبين سيبادلك نفس الشعور ؟

ـ الحب لا يقابل إلا بالحب .

ـ وأنت ؟

ـ أنا ماذا ؟

ـ يمكنك أن تجدى الحب .

ـ وما الفائدة إن وجدته ؟

ــــــ لو عرفت الحب الحقيقى لتحولت حياتك من جحيم إلى جنة ولأمكنك مواجهة العالم كله .

ـ تتكلمين عن الحب كأنك قد عشته .

ـ إنه أجمل إحساس .

ـ أجمل الأشياء دائما تكون أغلى الأشياء وتلك لا يقدر عليها الكثيرون .

ـ إلا الحب يقدر عليه كل من كان له قلب ، ألم يخفق قلبك مرة ؟

صمتت حياة وكأنما أربكها السؤال ثم قامت وهى تقول لسعاد فى محاولة لتغيير مجرى الحوار :

ـ أخذنا الحديث ونسيت رضعة أمل .

ذهبت إلى مهد صغيرتها ، حملتها وضمتها إلى صدرها .

لاحظت سعاد ارتباك صديقتها وتهربها من الإجابة فاحترمت رغبتها فى الاحتفاظ بسرها الذى لم يكن يخفى تماما عليها .

أر ضعت صغيرتها ثم ناولتها سعاد التى داعبتها وقبلت جبينها ، ثم نظرت إلى حياة متسائلة :

ـ كيف حامد معك ؟

ــ حامد قد وجد بغيته وحقق ما كان يصبو إليه ، كان فيما سبق يأتينى لأنه لم يكن أمامه ســواى ، أما اليوم فلمَ يكلف نفســه عناء اســتجداء مشاعر امرأة استهلكها الحمل والإنجاب واستنفد تفاصيل أنوثتها طيلة سنوات ويترك امرأة تصغرها بعشر سنوات ؟

ـ لكنك زوجته ولك حق عليه ، ألم يعدك سابقا أنه سيعدل بينكما ؟

ــــ يقول إن العدل فى الإنفاق والمبيت فقط ، أما ممارسة الحب فهذا فعل قلبى لا سلطان له عليه .

ـ أهكذا يصرح لك ويجرح مشاعرك ؟

ـ إنه حتى ما عاد يناديني باسمى .

ـ بما يناديك إذن ؟

ــــ أم البنات ..حتى فى الليلة التى يقضيها عندى يولينى ظهره ، أحيانا يمر علينا اليوم واليومان دون أن يخاطب لسانه لسانى .ذ

ـ وأنت ماذا تفعلين ؟

ـ أوليه ظهرى وأحتضن أمل وهكذا تتوالى الأيام ...

ـ وماذا عن قلبك ؟

ـــ غفوت ذات مرة فتسلل قلبى و سرت روحى إلى الجنة ، إرتشفتْ من نهر الحب رشفة ثم عادت إلىَّ ولم أنل من الحب سوى أن رأيت الجنة التى يحق لى أن أراها ولا ألمسها ، أحرسها ولا أسكنها ، تسرى إليها روحى ولا يرقى إليها جسدى ،

هذا نصيبى من الحب .

تنام حياة ليلتها تلك فترى نفسها تسبح فى خضم بحر متلاطم تكابد الغرق ، بينما تلوح لعينيها على الشاطئ البعيد أرض تكسوها الخضرة حيث يتراءى لها رجل يبدو من هيئته أنه أحمد واقفا أعلى تلة صغيرة ، مادا ذراعيه باتجاهها كأنما يحفزها على السباحة نحوه عكس التيار ، يعلو الموج ويحول دون رؤيته ، يدفعها التيار بقوة باتجاه الشاطئ الآخر حيث ترى ثلاث يمامات خضروات يتساقطن من أعلى شجرة وقد عصفت الريح بعشهن وتطايرت أعواده فى الهواء ، يعلو الموج ويهبط ..

تجدف بكلتا ذراعيها بقوة ، يستيقظ حامد وقد صدم وجهه إحدى ذراعيها ، ينظر لها فيجدها نائمة تهمهم بكلمات غير مفهومة فيقول فى نفسه :

لقد عاودتها الكوابيس المزعجة .

المنصورة

15 يونيو 2011